أنا مَن احببتُ قبل أن أكون أنا

الزّنبقة

شبه قصة فى مقطوعات

تأليف

حسين عفيف المحامى

الطبعة الأولى

---

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى روح شقيقي

سعيد عفيف

obeikandl.com

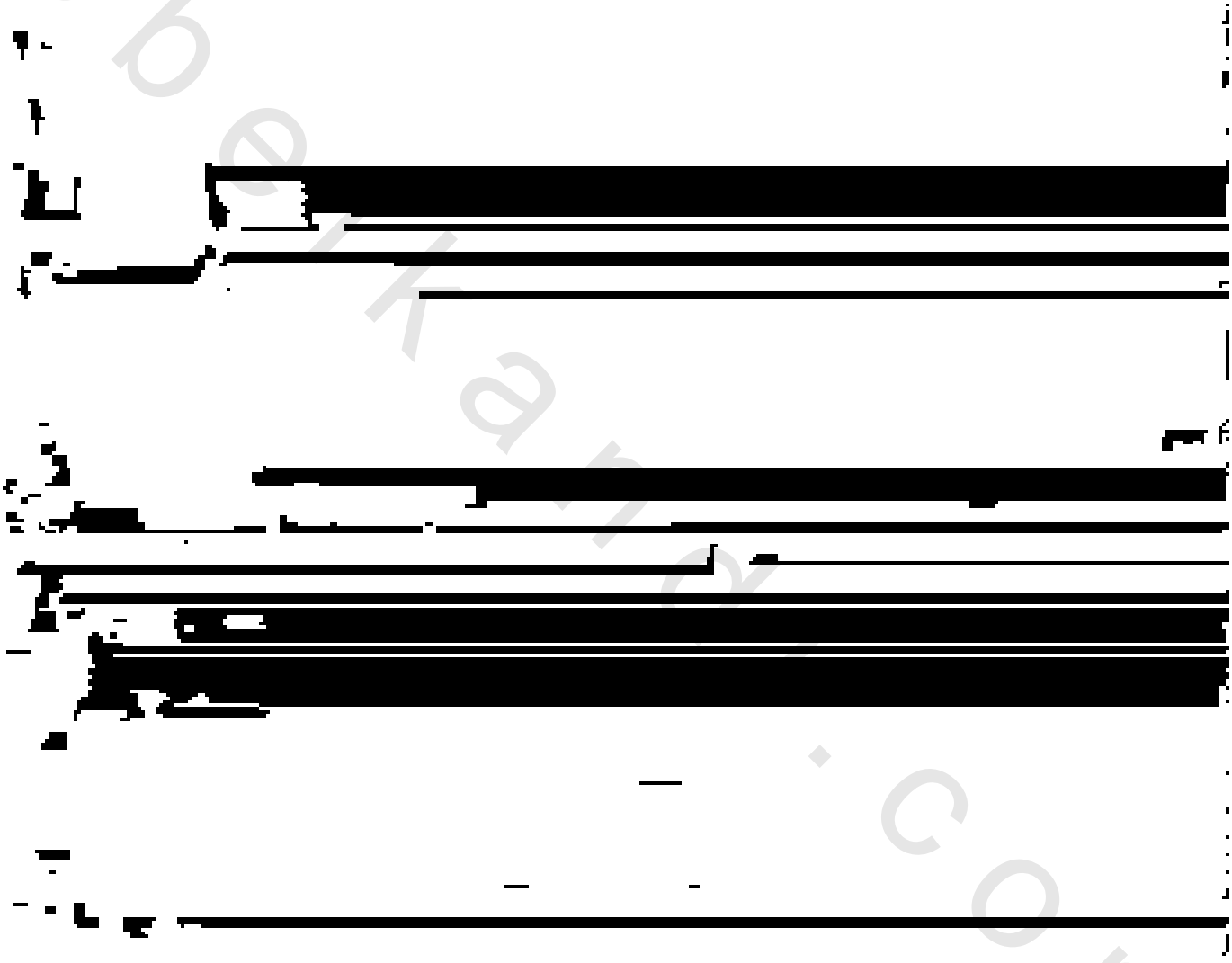

تحيـــة

يا شقيق !

جُلُّ هذى الدموع عليك . فما أجدر أن تُهدَى إليك. أمسِ أهديتُ « سَهِيرَ » لشخصك . واليومَ أهدِى « الزَّنْبَقَةَ » لروحك . تلك تحية الحياة . وذى تحية الموت .

ليتك تَقرأ ، لتعرِف . ثم ليتك تَقرأ ، لتعرِف ، أىَّ دمعٍ أجريتَ بَعدك ، أىَّ نارٍ تَركتَ وراءك !

قديماً لقد التقينا وغصنُ الحياة غضٌّ نضير ، وشهِد اللهُ كم وُرودٍ قَطفْنا معاً ، ونزْهاتٍ على الأصائل مضَيْنا معا . أبداً معاً ، فما خطر ببال أحدنا أن نفترق ، إلى أن انقضَّ عليك الموتُ واختطفك منى .

والآن وقد ذَبُلَ بنا الغصن ، وتشتَّتْنا واحدٌ إلى الردَى وواحدٌ إلى الاحتراق بناره ، فلْنَبْكِ ثم لْنصبرْ ، ثم لْنبكِ ولْنصبرْ ، إلى أن يعود فيَجمعَ بيننا الغصنُ الذى كان جَمَع ، فى حياةٍ غيرِ الحياة ، وعلى فردوسٍ هناك لا يدرِك الذبولُ أغصانَه .

طِبْ نفساً فى قبرك ، ولْتضطجعْ هادئةً عظامُك . إنّ أهلِيك ما نسوك وما هم مُزْمِعو نسيانَك . لقد سقيتَهم فأسكرتَهم ، وأقسموا لا يفيقون إلا أن تُفيقَ أو يُغْفُوا معك .

أىْ أخى ! لَئِنْ فرَّقَ منا الموتُ جسدين ، لقد وَثَّق مهجتين . لأنت الآن فى ذمة البعد فكرة ، أبْلغ منك حين كنتَ جسداً يُلمَس . تلك سنَّة الحياة ، تُشْغَلُ الأكثرَ حيث بوّنا بالأقلّ .

قَضَى اللهُ فَلَكَ منّى الوداعُ ، والتحياتُ لروحك . ولَئِنْ نأيتَ فذى دموعى عَهْدُ ما بينى وبينك . فخذها

وثيقةً من حيٍّ لميِّت . واقرأ ، لتعرِف . إقرأ ، إذا كان الموتى يقرءون .

فاتحـــة

عندما أُنشِـد أشعارى الحزينة ، تشتدُّ بِى تَباريحى ، وإخالنى أفنَى على مِـزْهَـرٍ غيرِ منظور ، إلى منارةٍ هناك تسامت فى الفراديس الضالة ، تَرقم ما انتهَى منى .

ما أنا إلا بضعةٌ من أغانٍ خَلُصَتْ للشجن ، كلما انطلقتْ تشدو ، شاع منها عذابٌ تذوب فيه وتفنَى . أغنيةٌ تِلْوَ أغنية ، تسير للفناء حياتى ، وكأنها الأكمامُ تتفتح لتمضى . وعندما آتِى على آخر مقطوعاتى ، سأكون فى طريق أطوِى السماواتِ إلى الخلود .

إن ساعةَ حَيْـنِى لن تكون أولَ عهدى بالموت . إنما أنا آخذٌ بأسبابه مذ وَطِئَتْ قدماى الدنيا الشقية . وما منيَّتى ، سوى آخر خُدْعةٍ فىّ تستحيل إلى حقيقةٍ عليا .

حلمٌ قديم

وقد أقبل الربيعُ فتفتحت الورودُ لِسَناه ، وحَفلَتْ مُورِقاتُ الغصون بأسراب الطير الغَرِد ، ومضى الفرَاش محوِّماً حول الزهور وقد رَفَّتْ أجنحةٌ منه كالشرر لمّاحة ، هنالك فى حديقة القصر وعند وردةٍ ألِفَة ، وقفتْ فتاةٌ وفتىً ، وكانا قد نشآ منذ الطفولة معاً كحمامتين احتواهما من المهد عُش .

قالت الفتاة وقد تألقتْ على ثغرها ابتسامةٌ كالربيع مشرقة : هذا الربيع يا فتاىَ يا ما أفتنَه ! أوَما تَرى ؟ كل أكام الأمس تفتحت ، وذلك الفرَاش والطير قد آبَ من بَعدِ غيبة . ثم هذا السَّنَى ، وهذا الشذا ، أين قَبْلُ كان ؟

وتنهد الفتى طويلا ثم أردف : أنا أيضاً أشعر كأن بين جوانحى وردةً تتفتح .

وصاحت ، شيءٌ عجَب ! إن بِى والله مثْل شعورك .

وسألتْه عن مكان شكاتِهِ فأجابَ ، هنا . وأشار إلى موضع القلب .

واحمرَّ مِن خجلٍ وجهُها ، وأحسَّت كأنما آخر خيطٍ من غلاف قلبها يتمزق .

وهبَّتْ نَسْمةٌ تأوَّدتْ لها الوردَةُ ، فمد الفتى ذراعه وطوَّق خصر الفتاة . ومالتْ عليه فعطّرتْه وعطّرها بشذاً عَبِق .

ثم حطّت فراشةٌ على الوردة فارتعشتْ ، وتساءلتْ الفتاةُ فأجابَ ، مِن لمْس القُبَل . فندَّتْ بطرف لسانها شفتيها ، فأهوَى عليهما مترفقاً وأطبَق فمه .

وغرد عند ذاك بلبلٌ ، فغنّت وغنّى وقال كلٌّ لصاحبه ، أحبك . وأحسّا بالضنى فارتميا على العشْب تَعِبَيْنِ وأغمضا كَمَنْ أخذتْهما سِنَة .

وطنَّتْ نحلةٌ وهما مغمضانِ فهمستْ ، أحالمين تُرانا ؟ فغمغمَ ، أمْ تُرانا رُؤَى ؟ !

وعادا إلى الغمضِ ، وصفّق طائرٌ في الماءِ ، فأفاقا على خفْق جناحيه وقاما يترنحان كشمليْن .

وإنها لتصلح شَعرها ، إذ قفزتْ على نهدها جرادةٌ فانتفضتْ وصاحت ، ماجنةٌ ما هي ! وضحك الأثنان معاً ، وقال الفتى لفتاتهِ ، لا تفزعي . قد أخطأتْ رمّانة .

و تحَدَّرتْ من الوردة قطرةُ ندَى فأصابت قدمِ الفتاةِ ، وسألتْه قالَ ، لا شيء ، أختكِ ذَرَفَتْ دمعة .

فاكتأبتْ ، ومشَى الحزنُ في قسَماتها ، وتساءلتْ ، لعلها تشكو ظمأً ؟ قالَ ، كلاّ . أحبتْ طائراً رحَل .

فأجفلتْ من فورها وغمغمتْ ، أهكذا تتعذب الورود بَعْدَ أن تتفتح ؟ وحارت على عينيهما دمعتان واستطردتْ ، يا ليتني ما تفتحتُ وبقيتُ في شِغافِ آمنة !

وانثنى على دمعها يجففهُ ، وتجادَلاَ فقالت ، بَلَى ، فَلَئِن تتفتّحْ يدركْنا الذبولُ ، وذلك السَّنَى

ما أقتلَه !

واعترض عليها قائلاً ، إنما الغمضُ ذبولٌ ، ولَئِن لمْ تتفتحى لَتَظَلَّنَّ ذاوية .

ولمْ تقتنع ، وردَّته عنها ، وتدافَعَا ، فأفلتتْ منه ولاذت بحجر أمها غاضبة .

وتولاه الحزنُ فحزَم متاعه وقصد إلى قريبٍ له فى الريف يتلهى بالصيد عنده .

وأحسَّت لوعةً لفراقهِ ، ونزلتْ إلى الحديقة ليلاً تتفقده . وأدركتْ يومئذٍ عِظَمَ ما فرَّطتْ فيهِ ، والشىءُ إمَّا بَعُدَ أغرَى النفسَ به .

وضاعفَت الأيامُ وجْدها ، وأضْفَى البعدُ على فتاها من تَهاويله هالاتِ ألَمِه . فقالت ، ياليتنى ماضيَّعتُهُ ! وحالَ لونُها من الفكْر فهو عليل .

وحان الخريف فمضت إلى موضع الوردة فما وجدتْها ،

وألْفت على الثرَى رفات زهرةٍ قد اضطجعَ إلى جواره بلبلٌ ميِّت .

وانقبضتْ أساريرها ، وتابعتْ سيرها الهوينا ، فما لبث أن وقع نظرها على سربٍ من النمل يجرُّ جثمانَ فَرَاشة .

وإذْ هي غارقةٌ تفكر ، مرقَتْ بومةٌ من بين الشجر فسقطتْ أمامها ورقةٌ صفراءُ جَففها البِلَى .

ثم حانت منها إلى أعلى التفاتةٌ ، فلمحتْ على الأيك عشًّا خلا من طائريْه .

فاستوحشتْ نفسُها وأنصتتْ علّها تستمع إلى طائرٍ غَرِد ، فصفّرتْ لها الريحُ أنشودةً خَرِبة .

فأدركتْ أن أيام الربيع قد ولت بما حفلتْ به من أحلامٍ فاتنة ، وأن الردى قد عصَف بما كان بالأمس يملأ الدنيا حياةً وبهجة .

وهتف بها من الأعماق هاتفٌ ، أنما الشبابُ ربيع

القلوبِ فإمّا تولىَّ عنها ذَوَت . فالبِدَارَ البدَارَ أيها العاشقون قبل أن يدهم المشيبُ ليلَ الصِّبا وأحلامه ، وتفيقون فلا ثَمَّ وَسَنٌ بعْدُ ولا رُؤَى .

واستشعرَت الضنى من هول ما رأت ، فأسندتْ ظهرها إلى جذع شجرةٍ وللبكاء نفْسَها أسلمَت .

وإنْ هى كذلك طرَقَ البابَ طارقٌ ، فأذا به فتاها آبَ من رحلتهِ ، وقد شَفَّهُ البعدُ فلم يَبْقَ منه غيرُ هيكلٍ وكأنما هو وجْدٌ تجَسَّم .

وخفَّتْ إليه لفورها ، وفتحتْ للقائه ذراعين بضَّتين وصدراً أرهَفه الضنى .

وطوَّق خصرها ، وطوَّقتْ جِيدَهُ ، وشكتْ وشكا ، وبلَّلَ كلٌّ بالدمع خدَّ حبيبه .

ثم مضيا إلى خميلةٍ على منحنى الغدير قامت ، وهناك وفى حِمَى دواليها الأمينة ، تبادلا من الفم قبلتين .

وخرجا فى خطاهما يتثاقلان ، وطفقا يحوبان أرجاء

الحديقةِ ، ما بين رابيةٍ يصعدانها تارةً ، وطوراً منخفضاً من الأرض يهبطان .

وعبرا قنطرةً ، ووجدا ممرًّا ، وأشرفا على جزيرةٍ ، وأطلاّ على بركةٍ ولاعبا بطّها مليًّا وأطعماه من كفيهما الحَبَ .

ثم قفلا راجعيْنِ ، وعرجا في طريقهما على برجِ الحمامِ ، فوقفا به برهةً يصغيان لجريح أنينه .

وواصلا سيرهما إلى خليّة النحلِ ، فلما بلغاها خفّ إليهما طنينهُ ومشى في مسمعيهما كهذيان سكران .

وخلّفاها وراءهما ، وصادفا في طريقهما قناةً قد سكنتْ إلى مائها الضفادعُ ، فما لبث أن طرقَ أذنيهما نقيقُها بريئاً ساذجاً كقلب الطبيعة البكْر .

وأدركهما الكلالُ فجلسا على مقعدٍ يستجمّانِ ، ثم نهضا فاستأنفا السيرَ ، ثم تعِبا فاستراحا ، وهكذا دواليْك .

وتتابع عليهما الوقتُ فتوشّيا بذهبِ الأصيلِ ، ثم ما لبثا أن تخضّبا بدم الشفق . واستمرّا فتلفّعا بعباءة الليلِ ، ثم طلع القمرُ فغمرهما بأشعةٍ من لُجَيْن . وهكذا وَصَلا نهارا مُشرقاً بليلةٍ نديّة .

وضحكا كثيراً ، ولعبا كثيراً ، وما نَسِيا يومئذ أن يذرفا دمعةً على قبر أختهما الوردة ، تحيةً منهما لذكراها العاطرة .

آه ! ليت الزمانَ يَرْجع بى ، أو يردُّ علىّ ماضيه ، أقيم فى رياضه لحظةً ، أنصتُ إلى بلابلهِ وأرتع فى رواياه ، ثم أطوف بأزهاره ألثمها زهرةً زهرةً وأقول الوداعَ وأموت .

الزَّنبقة

إذا ما انقشع الظلام يا زَنبقتى ، وتثاءب عنك الفجرُ بيضاءَ فارعةً بين أترابك ، فانتظرى بلبلك .

لقد بات ليلَهُ ساهراً يصوغ لكِ الأغاني ، ويرقب الصبحَ على الضنى ليلقيها على مسمعك . وإنه لَمِن وحْي حسنك ما نضّدها ، ومن وجْده المبرِّح ما أترعَ بالشجَى .

لمَ لا يغنّي على هواهُ ، وقد أحبَّ فيك من دون الزهور أعيناً نعسانة ؟ وتيّمتهُ كبرياءُ منك وتيهُ تفرّدتِ به فبدوتِ من بينها كأميرة ؟

لها اللهُ قامةً لكِ فرعاءُ تساميتِ بها على باقي الزهور لِداتك ! وعبقٌ منك أنيقٌ كلما ضاع حدّث عن نبلك ! وشحوبٌ خامرَ الناصعَ من لونك فبالأسى حلاّك . هو الجمال الضنين يأبى ياحبيبتي إلا تحجُّباً ؛ ولقد ضنَّ حسنُك بنفسه على العيون فبالحزن تقنّع .

يا ما أشدَّ ما أعاني من أغانٍ بين جنباتي حبيسة ! يميناً بالله لقد بات يتململ القلبُ من طول سكوته ! أنتِ مَسَّ سحرُك العشيَّةَ أوتارَه فأفعمها بالنغم ، وعزيزٌ

على الطائر الغريد أن تجيش بصدره الأغاني فلا يترنم .

أنا آتٍ يا زنبقتي مع الفجر فانتظري مقدمي . ولسوف أرسلها أناشيدَ تأخذ بالألباب من أعلى الأيك . أفتُرَى أنت مُعيرتي وقتئذ سمعك ، ومصغيةً إذا ما أنا غردتُ للمتلهف المشبوب من نجواى ؟

ذلك ما إخال القلب حدثني به ، وقديماً عودني الفؤاد إذا ما تحدث أن يصدق . ولا عجب فأغانيَّ والله رائعةٌ مثلك ، أنا البلبل يا من أنت الزنبقة .

ومع هذا فسأظل أرتل مقطوعاتي الأولى واجفاً إلى أن أثق من أنها شنفت مسمعك . وعندما ألمح فرعك تمايل نشوانَ مع النسيم ، هنالك فقط سأوقن أنك طربتِ لها ، فأهبط من غصنيَ العالي إلى موطىء قدميكِ ، وأقدم لك في خشوعٍ قلبي .

وإذ تلتفين عِطفَيَ ما قدمت ، ستأخذين بيدي باسمةً وتجلسينني إلى جانبك ، وعندئذ نواصل الغناء معاً

إلى ساعة متأخرة من الليل . حتى إذا ما الجفنُ كَلَّ وداعبه الكرى ، ودَّعتك على أن أعود إلى واديك لدى مطْلع كل فجر .

الحب

بدا حسنُها فخفَضتُ بصرى ، واستوى آمراً فأحنيتُ رأسى . وما عابنى أننى فقدتُ تجلُّدى ، فى هواها أو عدتُ منه وكبريائى جريحة .

فرضاً علىّ إنْ أنا رفرفَ الحبُّ فوقى ، أن أُرخى لعيْشه الجميل جوارحى ، وأُسْلِم الجفون لسلطان منامِه . ولقد ذقتُ مِن حبك ما برّحنى ، ومن حُلو أسرك ما كتَب هوانى .

أيها اللائمونَ إنه لَمِن العبَث أن نَنسى ، أيها اللائمونَ ومِن الحمق أن نقاوِم . أو فقولوا لِى كيف يمكن أن يقتحم سحرُها فؤادى فأحسّه ، وإرادتى التى

تحكمون واقفةً بالمرصاد أمامه ؟

أوَ يريد العذول أن أتخلّى عن سحر عينيك كيما أعود غانماً كبريائى ؟ ليته الخاسئُ يعلمُ أن خلجةً واحدة من أهداب جفنك الساجى ، تساوى غرورى كلَّهُ وما سبحتِ منه بقدمك الجميلة !

أىُّ صفقةِ غبنٍ ياحبيبتى إنْ أنا ربحتُ العالَم أجمعَ وخسرتُك ! أىَّ جرمٍ فى حق قلبى أقترف ، إن أنا أطعتُ السداد وعصيتُك !

أتدرون أن حبك قاتلى ، أفتسوءنى أنما أتململ فى عذابِ سُمْتِنِيهِ ، وفى أعظم منه فى الغدِ منك أتوقّع ؟ حين أقضى فيقال عاش عبدَ هواها ، ومات منه وهو شهيد ؟

إنما الحب هزيمةٌ وتسليمٌ ، وبدون هذين يا عذّالى عبث . فذرونى إذن وما ترجفون ، فما أنا بالمقلع عن حبها كِبراً أو طمعاً فى سلامة .

ويا حسنَها زِدْ ولا تَرحمْ مضناك ، واشْعِرَنّي دائما بأنني أمام جمالٍ بعظمة قلبي خليق . فما أنا ممن يحفلون من الحسْن بهزيلِه ، أو يجشّم القلبَ غراماً يَرحمه .

قلبي

تاه رشدي فما عرفتُ أيّ مصير على قلبي كتبتُ ، حين غامرتُ به العشيةَ في حبك . وتحيّرتُ أتُراني فرّطتُ فيه كما زعموا ، أم أنني وثّقتُ بيني وبينه عُرَى على دوحة المنَى والشوق لم تكن قَبْلُ مكينة ؟

أنا في هواكِ ما بين واجدٍ ومضيّعٍ لقلبي . سعادة من حياتي قضيّتُها في البحث عنه ، فكان فقداني له بدءَ عثوري عليه . فمن خفقة الحب ما أدركتُ أن لي قلباً ، وأن هذا القلب منّي بالحب منتزع .

شُغِلَ بك يا حبيبتي القلبُ فراح يشغلني به . وشُغلتُ بهِ ، وكان ضالاً فوجدتُه . ووجدتُهُ ،

فإياى وجدْت . وهكذا عَرفتُ عن طريقك نفسى .
ولولاك ما فكرت . ولولاك ما عَرَفْت .

أنا كنتُ زهرةً وعلى نفسى مغلَقة . كان يُحْوِزُنى النورُ كيما أتفتح . كل زهرةٍ بأشعة الشمس رهينة . ولقد كنتِ الشعاعَ ، وكنتُ الزهرة .

وتفتحتُ فأبصرْت ، وفيما أبصرتُ نفسى . ومذ أبصرتُها ، أبصرتُ لأول مرةٍ حسنِى .

ورأيتها فرأيت ما أذهلنى . رأيتُ ظمأً وفى قرارته كائناً يتعذب ، وللحال ، أدركتُ أنه أنا . ولا تسألينى كم فرحْت ، فحسبى أنها كانت نفسى التى وجدْت .

ولكننى عندما أردتُ الوصول إليها ، ألفيتها بين يديك أسيرة ، وهذا ما زاد من عِظَمِ شأنها عندى . لقد تضاعف إعجابى بها ، حين وجدتُها وقد بارحتْ وكرها المظلم إلى حيث تستقر عند زهرةٍ عَبِقَة .

هأنذا أجدُّ فى السير ياحبيبتى كى أنتهى إلى حيث أنتما .

فإذا ما قُدِّر لي أن أصل ، فسألتقي بها عندك كما يلتقي غَرِدان على دوحة ، وثَمَّ فرحةٌ لا تعادلها فرحةُ معرفتي بها .

إن الطريق لَشائك ، ولكنّ شوكه من قبيل شوك الورد ، لِوخْزِهِ عبيرٌ يغري به . وكفاني أن نفسي أيضا في منتهاه ، أستطيع أن ألمحها كلما شئت ، وأملأ منها عينيّ .

سواءٌ يا حبيبتي أوَصلتُ أم لم أصل ، فلا تعيدي إليّ بحالٍ نفسي . إني لأشفق أن تقبع في صدري حبيسة ، ويطويها الظلام الذي ما أعود أتبيّنها معه . أبقيها عندك أنتِ وعلى مرمىً من شعاعك ، وعندئذ فقط ، تكون في متناول بصري .

احتفظي بها وإن عذّبتِها . إن العذاب ليحلو لي من يدك . أنا إياك وهبتُها ، فكوني وليّتها وما شئتِ بها فاصنعي . ولئِنْ قسوتِ فشكتْ ، لأُكرهنّها

على البقاء صابرة ، فذلك على أى الأحوال أجدى علىّ من أن أضلّ مكانها عندى .

لاضَيْرَ علىّ إنْ أنا ضَيَّعْتُها اليوم . إننى لأجدها فقط ، حين أفقدها بين يديك حبًّا وكرامة . كأنك ، وكأنك وحدك ، سبيلى إليها .

ضيِّعيها إذَن أجدْها . إنما فاز من الناس بقلبه ، امرؤٌ فى الهوى ضيَّعه .

لقاء

واحتوتْنا الحُلْكَةُ بين لفائف الشجر . وفيم كنت أقبِّلها ، لمحتُ ومضةً عَجْلَى بعينيها مشَت . كأن شوقاً شَبَّ فى جسدها فجأةً فناظريْها أضاء . نحن كنا فى مخبئنا ليلتئذ ، كفراشتيْن لاذَتَا بالظلام فما يبدو منهما إلا أعينٌ تلتمع .

وخرجنا فسقطتْ علينا أشعةُ القمر كفرحةٍ مباغِتة .

لمَ لا نفرح ويفرح القمر بنا ، وقد أخذنا من تو قبلة ؟

أو إنْ بكَ القمر حينذاك ابتسم ، فلمَ لا يفعل وقد سرقناها كلصين ؟ يقيني أن هذا القمر يحب كل لصٍّ ظريف .

جميلٌ بالإنسان أن يسرق مرةً في حياته . إن المال ليغلو في أيدي اللصوص . ولقد سرقناها قبلة . وما من صلعة العذول سرقنا ، وإنما من شفاههنا نحن . فلتطمئن ، فلقد سرقنا حلالا .

لم أكن قد رأيت حبيبتي بعدُ في ضوء القمر . لقد كدت أُجَنُّ هياماً بها ، عندما ألفيتها تمسي بنفسجة ، وهي التي كانت زنبقةً في الصباح . ولا عجب فلقد صبغها القمر آنئذ بزرقته الحالمة .

وما كنت أتوقع أن أراها حزينة هكذا ، وليس ثمّة للحزن سبب . ولا أدري لمَ بدوتُ أنا أيضا

كذلك ؟ ولكنْ لعلنا كنا ننوء بشوقنا . كما لو كان الذى بنا وقتئذ تبرُّماً بالفرح . أجَل ، لقد تعبْنا من فرط ما فرحْنا .

وكم من مرةٍ همنا فيها بالكلام ، فكانت ترتجف منا الشفاهُ أو تَطْفُر من العين دمعة . كان يجب أن نبكى قليلا لنخفف من عبئنا . كاذبةً كانت دموعُنا إذَن ، جميلةً ككل شىء كاذب .

وخطرْنا نمشى وذراعها متأبطاً ذراعى . ككائنين من وجْدٍ كنا تحت الأضواء الشاحبة .

ولبثنا برهةً صامتينِ ، ثم نطقَت الجميلةُ باسمى . نطقتْ به وسكتت !

أنا أيضاً هتفتُ باسمها وسكتّ ! ماذا وربى أمْلك عليه من مزيد ، وهو القصيدة التى انتظمتْ كل أشعارى ؟ حسْبُ اسمِ الحبيب أنه الكلمة التى إذا قلناها ، لمْ يبقَ عندنا ما نقوله .

لأقسم بصوتها الملاكىّ ، أنه فى اللحظة التى هتفت فيها به ، أيقنتُ أنه أعظم شأنا مما كنت أظن . لقد كان له فى فمها ، وعلى غير ما عهدتُ فيه ، رنةُ أوتار الكمنجة لاعبَها القوس .

بل إننى نفسى قد بدوت بين يديها أعظم مما أنا . يخيل لى أننى أمامها أصبح مخلوقا آخر . مخلوقاً أغلى من حقيقتى .

إنها لتضفى علىّ من حبها فخامةً ليست فىّ ، وإننى لأدرك ذلك كلما صرت وحدى . لستُ بقردٍ على أى حال ، ولكنّ المهم هو أننى أصبح غزالاً فى عينها . إن فى امتزاج قلبين لخلقاً جديدا . عندما يلتقى اثنانا ، نصبح على التحقيق أكثر من إنسانين .

ما كان أجمل أن تفُوه من بعد صمتٍ باسمى ! لقد خلتُ صوتها فى نعومته واتئاد جرْسه ، لصًّا سرق السكون فى لباقة . إن فى صوتها لطبيعة لحظها الذى

يختلس القلوب على طريقة اللصوص .

كل شيء فينا كان ليلتئذ كلص . أنا وهي وصوتها ، كان ثلاثتنا لصوصا . ولقد تآمرنا ، أفتدري يا قلبي على من ؟ عليك أنت . اغتبط إذن . إن لصوصاً ظرفاءَ قد دأبوا على سَرِقَتك .

لا أذكر كم من الزمن لبثنا ، ولكنني أذكر أننا سمعنا من خلال الرشاش المنبعث من نافورة الحديقة وقتئذ وقْع أقدام تقترب ، فتسللنا من قبل أن تدهمنا .

كانت ليلةً لا أنساها . ولقد كتبتُ صحيفتها في سويداء قلبي ، كما كتبها طيفُنا في الظلام ليلتئذ .

وها قد تتابعت السنون فمضى الظلام ومضينا معه ، كما مضى من فؤادي ما كتبتُ مع ما انطوى من صفحاته ، ولكنّ ليلتنا مع ذلك بقيتْ وستبقى حيةً في عمر الزمن .

إني لتدمع عيني كلما تأملتُ هذه الأيام الخوالي ،

فأذا بها ما زالت تعيش فيّ ولا أعيش أنا فيها ، ولكم أراها وهي تنأى في ركب الزمان ، فأناديها وأبح صوتي فما تجيبُ وتُمعِنُ في البعد ، وأظل أرقبها من خلال الدموع وهي تبتعد .

ساحرة

سألتني ما سحرُ الجمالِ ، قلتُ دونك المرآةَ وإليها انظري . وحاذري أن يخادعك من طيفك الفتونُ فتقعي في شِباك حسنك مثلي .

يا مريضةَ الجفون إن مضناك يخاف عليك السقمَ من جفنك . فلقد أشاعوا أنْ هدَّدتْ بذبولٍ وجنتيك الحمرةُ من خدك . وأضافوا أنْ أوجس خيفةً بانك من المِيَاس من قدّك .

تعالَيْ حبيبتي أقرأ التعاويذ عليك لأحوطك من نفسك . تعالَيْ أتْلُ حولك الحواميم لأصرف جِنّك عنك . تعالَيْ

من عبث سحرك أرقِك إنْ كانت الرُّقَى تجديك .

أيُّ مسٍّ لِجِنِّيٍّ ذلك الذى منك كَسَبَ فى الملاكىِّ من حسنك ؟ أيُّ داءٍ إليك منك سَرَى فتوهمناك الغداةَ انتقيلة سحرك . أيُّ سهمٍ فيك منك استقرَّ فأُنْذِرتِ من يدك بحتفك ؟

كم فقدْنا الرشدَ حين مسَّنا المسُّ منكِ ، فكيف بك وهذا المسُّ فى جسدك ؟ وشكونا من ظُبًا ألقيتِها ، فكيف بك والظُّبا قائمةٌ قاعدةٌ فى لحظك ؟ وضججنا من نارٍ أوقدتِها ، فكيف بك وحنايا الضلوع منك مستودعٌ لهبك ؟

نعتوها بقولهم ساحرةٌ ، أفرأوْا فى الصدق أروعَ من زورها لمّا بَطَل ؟ واستعاذوا من عُقَدِ نفثِها ، يا سحرها زدنى نَفْثاً فى العُقد .

ذكرى ليلة

أتذكرين إذ التقينا على ضفة الغدير في بستان قصرك ، والشفقُ يحكي يومئذ في اللهيب وجنتيك وقلبي ؟ ولبثنا نتطارح الهوى على وَجَفٍ بالقلوب ، حذرين من الرقيب إمّا دنا ، خَجِلَيْن من النور يهتك سرّنا ، وإذا بالشمس ترعى حبنا فتتوارى وراء الغيب وقد أسلمتْنا إلى الليل الذي يُرخي على العاشقين سدوله ، وبقيتْنا غريقيْ دُجُنّةٍ من ظلامٍ ، ما لعيون العذول إلينا فيها من سبيل ؟

حين اختفت يا حبيبتي في الحلكة الكائناتُ ، إلا عن المغرمين الذين ما يُغمِضُ الليلُ فيهم أعيناً مشبوبة ، ولا يُسكتُ الهدوءُ لهم قلوباً خفّاقة ، فمضينا وإذا الزهرُ كما عهدناه أَلِق ، وإذا الجوانح عند ظنّنا غريدة ، ما محاها من وجودنا ظلامٌ ، ولا طواها فيما قد طوى ؟

فكم وردةٍ في الظلام لمحْنا وقتئذٍ غزلة ، انبرتْ تغمز إلينا بطرف الحاجب . وكم حشرةٍ بين اللفائف راحت تختبىء ، غلّ عينيها الحقدُ فرمتْنا بالشرر .

ويا ربَّ ضفدعةٍ على قدميْنا قفزتْ ماجنة ، أو جرادةٍ على جيديْنا حطّتْ لعُوب ، ليذكّرانا أن في الروض رقيباً لم يزل ، وأن للّيل عيوناً وإن خيلتْ ساجية .

يا ليلةً كم خفّ فيها مع النسيم العطِرُ من شعرك ، وبأجفاني كبوادر الوسَنِ عبثتْ أطرافُه ! يا ليلةً كم غمرَنا القمرُ فيها بالحالم من شعاعه ، فرقَيْنا على رُؤاهُ إلى الغيب ، حيث تهذي الأحبةُ بالهواجس المستحبّة !

يا ليلةً امتزجَ الدجى فيها بوجهك الصبوح فلثمتُ الشكْلاتَ من خدك ! وحالَ فيها الوردُ من شفتيك فقطفتُ البنفسجَ من ثغرك ! شهدَ اللهُ لمْ يغبْ

طيفك عن جفوني ، وكأنك منّي في عمر الزمان أمس أو أقرب .

قسماً بحبنا المُدَوّي في الجوانح خفقُه ! قسماً بنور عينيك مُوقِدِ ناره ! قسماً بالقلب مثوى لهيبه وأُوَاره ! قسماً بالروض جامعِ شملنا ، قسماً بالليل كاتمِ سرّنا ، لم أزل نشوانَ يا حبيبتي بالذي سقيتني ليلتئذ من حبك .

وكأني وقد دوختني خمرُ الهوى ، بين يدي أنت ما تزالين ، أكتوي بسخونة عينيكِ ، وأرتوي من رحيق فمك . وكأن أنفاسك الحارة ما تنفك تتدفق في صدري ، ونَبَرات صوتك الحنون ما برحتْ في أذني تغرّد .

يا سلامُ اللهِ عليك ما ابتسمتْ في وجهك زهرة ، أو همَّتْ لطلعتك قمر . وعفا الله عن كلبك الهازىء بالحب ، حين عَلاَ ليلتئذ نباحه ، فانسبتِ كالفراشة بين الأزهارِ وتسلقتُ السياج الشائك وحدي .

كما عفا عن كل من رماني بنكتة ، مِنْ عابري سبيلٍ ألفوا الماء والوحل يلوثني ، بعد إذْ عثرتْ قدماي في قناةٍ على الطريق ، ساعةَ نبحَ الكلبُ فولّيتُ الأدبار .

عذاب

لمَ أنتِ غاضبةٌ يا حبيبتي ؟ تالله إن عبوسك ليقتلني ، ويحرك فيّ شهوةً لتذوّق العذاب دفينة .

يا ما أشد سلطان الجمال على القلوب الشقية ! الصدود الذي يبعث اليُبْسَ والبِلَى في إهابي ، بتُّ اليوم أستعذبه لأنه من يدك . كأنني ما هويت الجمال إلا لأسير إلى الردى بقدمي .

كلما أمعنتِ في تعذيبي ، أحسستُ بقوة سحْرك تمشي ساخنةً في دمائي ، فما ألبث أن أذوب في حرّها عشقاً وصبابة ، وإذا بي أعود وما يعيش فيّ سواك . فأذا ما لمستُ بيدي فنائي وأيقنتُ أنني أصبحتُك ، طفح

فؤادى فرحاً لأنه استبدل نفسه بمناه .

كل نفسٍ بحاجةٍ إلى إيمانٍ عظيم تضيع نُلْقَى إليه ويبقى . ومذ هزمنى حسنك يا حبيبتى ، أيقنتُ أن فيه ميزةً تُعبَد ، فما لبثتُ أن وجهتُ شطْرَ هيكله المقدس إيمانى .

وكما يعتزُّ الناسك بصلاته ، اعتززتُ بذلّى فكسوتُ قلبى بالخِرَقِ البالية ، وأرسلتُه إلى بابك يستجدى ، حاملاً فى يده المرتعشة وِفاضه الخالى ، وكلما جُدْتِ عليه بعطية ، أخذها وعدا إلىّ وهو جذِل ، فامّا نهرتِه ، قبع خافض الرأس على عتبة معبدك .

وإذ هو يرقب فى محنته عظمتك من خلال ذُلّه ، كالسيد ارتقى ظهرَ أحد مواليه لينوء بسلطانه ، ترتسم على وجهه الهضيم ابتسامةٌ كسيرة ، وسرعان مايطلب فى أعماق نفسه المزيد من ظلمك .

يا حبيبتى عذّبينى كيف شئتِ ، وإنما اقبلينى لكِ عبداً ،

وأشعرينى بأنك تقصدين أذاىَ وفىّ تفكرين كلما همّتْ بالبطش بى يدك .

إنى لأخشى أن يكون صدك ملالاً وجفوة ، وعندئذ أرانى متطفلا على جحيمك ، أنتحل لنفسى هيبة الفاتن عنوة ، على حين يرجو الفؤاد أن يكون العذاب الذى أتمرغ فيه ملْكى .

أنا جذوة شقية كُتِب عليها أن تجد اللذة فى أن تحترق . فهيا وزيدى ضرامى بلهبك ، ودعينى أتذوق من شقوتى الهناءَ وفيه أفنَى . حتى إذا ما انتهيتُ وصرت رماداً هامداً ، فرغتُ منهما معاً ، واسترحتُ من لذةٍ أنا فيها أرتاب وبها أتبرّم .

كبرياء

إن فتور عينيك الذى يشْبه الوَسَنَ قد غيّب فى حُلُم الغرام قلبى . وسنَى ابتسامتك عندما أشرق كاد

يخطف وهجُهُ بصري . ولكم أحرق لهبُ شفتيك حين قبّلتُك فمي !

كدتُ أفنى في حسنك المولع بالفتكِ ، يا حبيبتي وجْداً وصبابة . غير أني علِم اللهُ ما باليتُ ، أنا مَن أحسُّ لذةَ الحب على قدر ما أضيّع فيه من نفسي .

يهبُ العاشقُ نفسه للحبيبِ ، ويودُّ لو فنِيَ فيه فكانه . كل ما ملكتْ يميني قربانٌ على هيكل الحسْن بذلتُه . يا حياتي ، ما خلا كبرياءٌ بتُّ أُشفق أن صدك يجرحها . وعزيزٌ على من كان مثلي أن يخفض الهامةَ وقديماً عهدها مرفوعة .

فاحذري في صدودك الغلوَّ فإني وإنْ أرخصتُ نفسي في سبيل الجمال لن أُرخص في سبيله كبريائي . حياتي وإنْ عزّتْ تهونُ ، ولكنّ كبريائي بنفسها أبداً ضنينة .

صدود

أنا مَن جرَت الغُدُرُ بمدمَعي ، أنا مَن بكت الوُرْقُ معي . فيا حسنَها زدني صبابةً ، ويا حبَّها زِدْ من حرْقتي .

حدَّثَ الوردُ أنهم نسبوه لخدها ، وروَى الغصنُ أنْ شبَّهوه بقدِّها ، فاعذروني إنْ أنا قلتُ قتيلُها ، وسلوا زهور الروض إنْ لم ترعوُوا ، مَن رآها فتورَّع أو زَهد ؟

أيا وردُ إنْ أنت الرياضَ فلُذْ بها ، وكُنْ يا وردُ شفيعي عندها ، علَّها تَقْبلُ من أخي حسْنها ، وترقُّ فترحمُ بلوتي .

قُلْ لها إن هذا الطلَّ من بعض أدمُعي ، وأن ذاك البرق من سنَى أضلعي . فكم يا وردُ أجْرت دموعي جداولَ ، وبعثتُ الشوق ومْضاً في الدجى .

واذكرنيِّ كلما وفدتْ عليك حبيبةٌ وحبيب .

فتناجيا كلما غفل الرقيب . فلكم بك يا وردُ وقفنا ، وشرحنا فى الليالى شجونا .

أذكرنىّ كلما صدران على ظلك اعتنقا . أو على عبقك ثغران انطبقا . واذكرنىّ كلما رنّتْ فى الروض قبلة . أو سرت فى سكون الليل أنّة .

ثم اذكرنىّ إذا الموعدُ حان ولم أعُدْ . ما لمثلى وللرياضِ وحبيبي يا وردُ صدّ ؟ واذكرنىّ أيضا كلما غرّدَ بلبلٌ وحده . أو بكى فى الفجر أليفٌ أليفه .

أنا من رجّع الطيرُ شجاهُ عن آهتى ، أنا من حدّثتْ ريحُ الصبا عن لوعتى . ويا ربَّ ورقاءَ فى الليل سمعتْ أنّتى ، فبكتْ وقالت يا شقوته !

أنا من يا وردُ أتلفه وجْدُهُ ، أنا من برّحَ بفؤاده الولهان حبه . أنا الصبُّ شفّهُ الهجرُ ، أنا البلبل صدّهُ الوردُ ، أنا منبوذٌ اليوم أنا مُوجَع .

خضوع

رحماك يا معذِّبتى ، إنك قد أذللتِ كبريائى ! ما لرأسى كلما هممتُ برفعه ألَحَّ به الوجدُ فهوى إلى قدميك ؟

يا لِسحْر جمالك القاهر ! لقد حطَّم كبريائى حتى لأصبحتْ تبغض نفسها أمامك . هاهى ذى تتردى بقدمها فى الذل جذلة ، كأن قوةً خفيَّة فيه تجذبها إليه ، ناسيةً كل ما كان من ماضيها .

أحقًّا أننا لن نتذوق الجمال إلا إذا استسلمنا إليه مغمِضين ، كما ترضخ الجفونُ المتعَبة لطيف الوَسَن يَبسط عليها سلطانه ؟

أحقا أننا لا نعرف الهوى إلا عن طريق هذا الهوان الفاتن ، وأن كبرياءنا ما خُلقتْ إلا لتُسحَق فى ساعةِ نزَق تحت قدمين جميلتين ، تنوهاً بعظمتهما حتى تملأ أعيناً ؟ فإذا ما امتلأتْ بها رضينا نحن بهذا مَغْنَماً ،

فأذا الخسارة ربحٌ ، وإذا الذل كرامة .

يا لله ! كأنى بكل شىء مخلوقٌ للجمال مسخَّرٌ له ! إنى لأشعر لنفسى بزهوٍ لا حد له ، عندما أسمح لها بأن تتلاشى أمامك ، ثم تعود إلىّ وقد ظفرتْ من حسنك بما يفوق أضعافاً ما ضيَّعت . عندئذ تعظم قيمتها عندى ، حين ألفيها وقد امتزجتْ بالذى عزَّ منك وغـــلا .

ألا يا كبريائى تحطمى ، ويا قدميها اسحقاها سحقا . إنه لمنَ الامتهان لعينيها أن تزجيا هذا السحر ، ومع ذلك تبقى كبريائى مكانها ولا تتوارى . حرامٌ والله أن أتجاهل هذا الجمال كله ، وهو ما خُلِق إلا ليُعبد ويسبَّح به .

حبيبتى ! فوق كل كبرياءٍ أنت بحسنك . فوق كبريائى هذى كبرياؤك . فدعينى أذرف عند قدميك الدموعَ لأتذوَّق لذةَ الضنى فى حبك . ولا تضنِّى علىّ

بالذى راح يفرضه من الخضوع جمالك ، واذكرى أنك سحقتِ كبريائى فارحمى ذِلتى .

الشـــك

كلما ارتبتُ فى حبك ، أيقنتُ أنه لم يزل أمامى منك مطمعٌ أسعى إليه . فأحمل نارى بين جنبىَّ ، وأجدُّ فى أثر الأمل الذى لم أنل .

وعلى طول الطريق ، لا ينقطع تغريدى كلما لاحتْ لِى من بُعْدٍ أنواره . ولقد يقعد بىَ الكلال أحياناً فأبكى ، ولشدَّ ما أطرب عندئذ لدموعى .

هأنذا يا حبيبتى أسير إليك تدفئنى وتؤنسنى نارى . ويلٌ لىَ اليومَ الذى أصل فيه وتبرد نارى هذه ، بعد أن تبلغ ما مِن بُعده ما كانت تتحرق إليه !

وا أسفَا علىّ عندئذ ! إن غنائى ما يلبثُ أيضاً أن يكِفّ ، ودموعى ما تلبث أن تنضب ، وإذا بِى أصبح

كتمثال من الحجر أصم . لله أنت أيتها النار التى تهبيننا الحياة ، وتفجّرين بأرهف المشاعر ينابيع قلوبنا المغلقة !

ما أقبح الحياة بلا مسير ، وبلا شدو وبكاء نستعين بهما على وعث الطريق ! يقينى أننى ما خُلقتُ إلا لأتابع السير فى أثر رغباتى ، لا لأنالها فتموت فى يدى كالزهرة بعد أن تُقطف .

أجَل ، إن أملى كله لمنحصر فى هذه الرحلة التى ما أرجو أن يكون لها آخر . ماذا تريد الطمأنينة منى ؟ إننى بالوصول . لا أقف فيعترينى السأم . ذلك الوقوف ، لمن أشقاء الموت هو .

يا زهرتى الجميلة ! حذار أن تدعينى أقطفك ، وإلا ذويتِ فى يدى . السعينى أبداً بشوكك كلما دنوت منك ، فيلوح لى أن هذا العذاب هو كل ما أبغى . إننى لأفضّل أن تحتفظى ببهجتك بعيدةً عنى ، عن أن أراك فى يدى ورقاتٍ ذابلة .

لا شيء فيك يعادل قيمة حرماني منك . إن اللذة لَفي هذا الحرمان الذي يسبغ عليك جمالك الزائف ، ويريني منك ما ليس فيك .

ما من شيء ينطوي حقًّا على القيمة التي يخدعنا بها مِن بُعد . إن كل مكشوفٍ تافه ، وكل مقنَّع خدَّاع ، والقيمة في أننا نُخدَع .

وإني لأعلم أن حسنك يخدعني في نفسه ، ولكنني جِدُّ محتاج إلى خِداعٍ كهذا يفعم بالأكاذيب قلبي . فطوبى لِمَن عرف هذا ، وأبقى على الوهم الذي يخدعه .

لَكَم أطرب للشك يا حبيبتي إذَن ، وأود برغمي لو أرتاب في هواك إلى الأبد . كلما دعاني فضول الهوى إلى أن أسألك هل تحبينني ، فلا تقولي أحبُّك ، وإنما قولي لا أدري .

الزورق

إذا أقبل الأصيل ياحبيبتى ، وترامتْ أشعّته على الموج شقراءَ مجعدةً كخدائلك ، فخذا هى نزهةٌ نقطعها وقتئذ فى قارب .

إن زورقنا ذا الوسائد الحريرية والأرضية المغطاة بالورد ، سيكون هناك فى انتظارنا على مقربة من الجرْف الذى اعتدنا أن نُقلع من عنده .

وسننطلق به وحدنا فى النهر هائمين ، يحدونا شاطئان منعرجان قد كستهما الأعشابُ السندسية . وهنالك وبينما نترنح فوق اللُّجّة الرجراجة ، سنبدو كرقصةٍ وقّعتْها خُطَى الموج .

كلٌّ منا سيكون قد انهمك بمجذافه الأبنوسىِّ ذى المِقبْض المذهّب . وسنستمع عندئذ إلى اصطفاقهما الرتيب فى الماءِ ، كلطماتٍ رفيقةٍ جادت بها يدُ حبيب .

وبعيونٍ جذلة ، سنرقب القطرات على صفحتيهما

تسيل كالدمع طفرت من الفرح . حتى إذا ما انتهت إلى حافته وتساقطت تترى ، سمعنا لها فى الماء نقراً خافتاً كقبلات على العين .

وستلوح لنا الجزيرة من بعيد كوعدٍ أُخذ خلال موعد . فأذا ما بلغناها مع الليل ، ألقينا بعد كلال مجذافينا ، وهبطنا أرضها تتحسس طريقنا فى الظلام ، تهدينا خيوطٌ ضئيلة من نور القمر .

وكمهجتين ضالتين ، سنظل نجوس خلال النخيل ، نبحث عن خُصٍّ نأوى إليه نستريح . حتى إذا ما اعتنقنا هناك وعدنا نشكو الضنى ، ركبنا زورقنا وانطلقنا به عائدين تحت الأشعة الباهتة ، كرؤيا سعيدةٍ طافت بأجفان الليل .

الفـــرار

سألتنى قبيل الفرار ، لمَ اخترتَ أن يكون اختفاؤنا فى غابة ؟ قلتُ لنتخذ من العشب بساطاً لنا . قالت ،

والبُسُط ؟ قلتُ تُعْوِزُها حيوية النبات .

ورفعتْ من دهشةٍ حاجباً ودمدمتْ ، أمِنْ أجل هذا فقط ؟ قلتُ ولِنتقيم كوخنا من قصب الأَجَم . قالت ، وقصرُنا ؟ قلتُ لمْ تمسسهُ كالنبت يدُ الأله .

وطوحتْ بشعرها لتثْنى خصلةً تهدّلتْ على الجبينِ وهتفتْ ، وماذا أيضا ؟ قلتُ ولِنقطف الوردة من البرّية . قالت ، وورْدنا ؟ قلتُ مُواتٍ وأحب من الورد الشّموس .

وتاهت عيناها ، وبدت كَمَنْ بدأتْ تحلمُ ، ثم غمغمتْ في همسٍ ، زدْني . قلتُ ولِنستمع إلى البلبل الغرّيد . قالتْ ، ومذياعنا ؟ قلتُ مرّ من لحنه الساحرُ بجمادٍ فجمُد .

وتوكأتْ على منكبي بالمرفقيْنِ وقالت ، وإذا اشتقتَ إلى ترنُّم إنْسِي ؟ قلتُ تغنّين . قالت ، وإذا اشتقتُ ؟ قلتُ أغنّي أنا .

وتنهدتْ رافعةً من صدرها رمانتين وهتفتْ ، استمرّْ . قلتُ ولِنَرِد الغديرَ إذا الشربُ وجب . قالت ، وأكوابنا ؟ قلتُ لا ينضح الماءُ فيها بخضرة العشب ، لا ولا هو يَعْبِقُ بانفاسه .

وعبثتْ أناملها بالمفرقين كَمَنْ تستذكر شيئاً ، ثم سألتْ ، وماذا لَعَمْرنا نأكل ؟ قلتُ من صيدنا . قالت ، فقط ؟ قلتُ وثَمَّ الثمار البرّية .

وربّتتْ على صدرها ، وحانت منها إلى بُرْدتها التفاتةٌ ، فتساءلت ، أوَهناك دمقس ؟ قلتُ لا . قالت ، وماذا ألبس ؟ قلتُ كوني عارية .

وأطرقتْ أرضاً ، وتمشّى في ناظريها الأسى ، وتمتمتْ ، أوَ ما يحزنك أن يضر بيَ البرد ؟ قلتُ ستألفينه . إنْ يؤْذِنا فلِأنّا نتقيه ، كَمَنْ يخشى الجنّيَّ فيتمثل له .

وأدارت وجهها لتذرف دمعةً ، واحتجّت قائلةً ،

أوَ أمضى عارية ؟ قلتُ كذلك وُلدْنا ، وكذلك ينبغى أن نعيش . ولم تجب ، واستطردتْ فى شجىً ، هذا الحرير يا ما أجمله ! قلتُ إهابك أجمل .

وارتسمتْ على ثغرها ابتسامةٌ ، وألقت نظرةً على صدرها ، فقلتُ كلوحٍ من مرمر . وأغضتْ حياءً ، ومدتْ ساقها تتأملها ، فقلتُ كجمّارةِ نخلة . فدبت بقدمها دلالاً وبسطتْ كفها تجتليها ، فقلتُ كقطعةٍ من عاج .

ونبحَ الكلب الذى عن كثبٍ منا فارتاعت وقالت ، وإذا دهمَنا الوحشُ هناك ؟ قلتُ نختبىء . قالت ، وهبْه رآنا ؟ قلتُ نقاتل .

ودفنتْ وجهها فى راحتيها فزعاً ودمدمتْ ، وماذا نُفيد من ذلك ؟ قلتُ نجاتَنا . نحظى بمولدٍ جديد ، مَن يخاطرْ فينجُ استفادَ ، وإنْ مات فما خسر . كلٌّ فى أجَله سيموت .

وتشبثتْ بعنقي كطفلةٍ ، فضممتها في قوةٍ كادت تهصرها ، وفجأةً من بين ذراعيّ أفلتت . ولبثتْ برهةً وهي صامتةٌ إلا من أنفاس تطّردُ ونظرة ظمآى نحوي سددتْ . وبادلتُها نظرةً بنظرةٍ ، وعلى حين بغتةٍ هتفتْ ، وحشيةٌ أنتَ الليلة طباعك .

وأمّنتُ على قولها قائلاً ، ثَمَّ شِيَمٌ برّيةٌ ماتنفكُّ تطالعني من خلال تهذيبي . شيمُ الساكني الغابِ من آبائي الأولين . وظلت تلهثُ ، وازداد بريق عينيها حدّةً ، وصاحت وكأنها استجابت لهمجيتي : يا فاتناً أنت في وحشيتك ! ثم انثنت فلطمتني .

ومشت يدُها ساخنةً في دمائي ، وقلتُ وقد حنقتُ بدوري : كمثل شَعرك هذا حين يُنكش . ونكشتُ شعرها فخربشتني ، ونشب بيننا عراكٌ ، ثم قامت تتحسس في خدها موضع لطمة .

وكففنا عن الشجار فأخذتُ بيدها قائلاً ، يا فتاتي إني

لتجتذبني رائحةُ الطينِ . وألقينا بالمقعدينِ ، وارتمينا على الكلأ مليًّا تتوسده . وسألتُ يومئذ وهي تدفن وجهها في نداهُ ، وشذاهُ في نهمٍ تتنسّم : لمَ الأناسيُّ قديماً آبوا من الغاب ؟ فأجبتُ كانوا خاسرين .

ومطّتْ شفتَها اشمئزازاً ، وقلتُ لها أمَا لكِ في رقصةٍ ؟ قالت ، بلى . ويا ليتها كاريوكا تكون ! ورقصْنا وصخبْنا ، واحتدمتْ خطانا ، وضجّ وقتئذ وردُ بستاننا التائجو .

وتعبْنا ، فجلسنا ، فقالت ، ومتى نذهب ؟ قلتُ أين ؟ قالت ، إلى الغاب . وقالتها هذه المرة بلذة . كانت قد فهمتْني .

الرحيل

قالت ونحن نشقُّ طريقنا في الحِراجِ ، أوَما تشمُّ ؟ رائحةُ الأعشاب البرّية ! حملتْها إلينا النسُّمُ !

وافرحتا ! ذى بشائر الغابة لاحت . ياما أعرق الغابة من موطن ! سكنُ الجوارح والوحش والجدود الأقدمين ! لمَ يا ربى هجرها القوم ؟ لمَ ولّوا عنها معرضين ؟

قلتُ قومٌ مخطئون . قالت كمْ ترغب فى أن تستوثق ، كيف وقد صنعوا الطائرة ؟ إنهم والله لحاذقون ! قلتُ حذقوا الصنعة وأساءوا اختيار مايصنعون . أداروا محرّك السفينة ونسوا دقتها . ولّوا غرائزهم ظهورهم وساروا فضلّوا ، وإنهم لفى ضلالهم ممنون . إن الإنسانية لفى اتجاهٍ خاطئ . إنها لا إلى الهاوية تسير .

واستفسرتْ لكيما تطمئنّ ، ونحنُ ماذا فعلْنا ؟ قلتُ تريثنا قبل أن نخطو . تساءلْنا إلى أين ينبغى أن نتجه . الاتجاه ! دائما وقبل كل شئ . لا فائدة من الجهود الجبارة إذا لم تخدم المقصد القويم .

قالت وعلى ثغرها ابتسامةٌ مزهوّةٌ ، وعندما فكّرنا ؟ وتريثتْ ريثما نحّتْ فراشةً كانت قد

جئتْ منها على الجبين ثم استطردتْ ، ياحبيبي إلامَ انتهى بنا التفكير ؟ قلتُ إلى هنا . إلى حيث غرائزنا تنطلق . إلى حيث تينع كالنبتة غُرستْ في الأرض الطيبة .

قالت وأصابعها تعبث بأصابعي ، وماذا من يُنوِّع غرائزنا نفيد ؟ قلتُ نينع نحن . إنها هي نحن . ما نحن إلاّها .

وتابعتْ سؤْلها ، وممّ عرفْنا أنها في الغاب تينع ؟ قلتُ منها هي . استوحيناها فأوحت . وأوحت فانبغى أن نطيع . ولئِنْ أطعنا ، لَنحتفظنّ بفطرتنا سليمة ، ولَتحتفظنّ لنا بروائها الحياة . لِنَصُنْ ذوقنا ، يَنْفذِ الجمالُ إلينا عن سبيله .

وعادت تستوضح في لهجة ساخرةٍ قالت ، حدِّثني إذَن ماذا هم فعلوا ؟ قلتُ حاربوا غرائزهم وما حاربوا إلا أنفسهم فيها . كتموها فأنفاسَهم كتموا . كفروا بالحياة حيث كانت ، فانتقمتْ منهم حيث ودوا أن

تكون . إنّ نهاودّ غرائزنا تواتينا ، وإنّ تقاومها تبخل علينا .

قالت ، زعم التعساء منهم أنهم زادوا من سعادة الأنسان . قلت بل شقاءه زادوها . قالت ، إنما قصدوا أنهم بسّطوها فصارت إلى متناولنا أدنى . قلت بل زادوها تعقيداً فأمعنت في النأى . كلما خلقوا لها مُيسّراً أضافوا إليها عناء جديدا . لقد شعّبوا التفاصيل فناء بها الجوهر .

قالت ، ومن قبيل ما عدّوه تيسيراً زعمهم بأنهم اختصروا الزمن . قلت ومع ذلك لا يجدون وقتاً للنوم ! وبعدُ ، لقد كان آباؤنا ينامون . أيُّ الزمنين إذن كان أوفر بركة ؟ إن الإنسانية لتهرول اليوم كأن أحداً يعدو وراءها بالسوط . إنها مجنونة هي ! أو تدرين لم تفعل ذلك ؟ لأنها لا تجدُ الوقتَ الذى تزعم أنها وفّرته . ولذا فهى تجدّ لتدرك بعض الفراغ . ومن عجبٍ أنها تفخر بهذا العدْو . كأنما ظنت لقلة عقلها ،

أن كثرة شواغلها تجعلها حقًّا على شيء .

إنْ أرثِ فما أرثى إلا لذلك الرأسمالى الأحمق ، الذى يزهو بأنه لا يملك وقتاً للطعام فيأكل والقلم فى يمينه . وهو مع ذلك يقولها ولا يخجل . لا يخجل من أن ملايينه ضاقت ذرعاً بلقمةٍ تحشرها فى فمه . كأن الله شاء أن ينقلب جشعه عليه نقمة ، فألهمه سوء التدبير ليجعل اللقمة الحرام غصة فى حلقه .

تالله لقد جلب العارَ على البشرية آدمىٌّ أصبحَ كالطاحون لا يقف . متى يتسنى لمخلوق كهذا أن يخاطب قلبه وهو طول يومه بجمع الدنانير مشغول ؟ يقينى أنه لا يلبث أن ينسى أن له قلبا . ومَن أجدر منه وقتئذ بأن يُنعت بالخيبة ، عندما يصبح وقد ألفى فى مكانه طائفة من مخترعات عصره التعس ؟ خزانةً يكدّس فيها أمواله مثلا ، وسيارة من طراز جديد يفكر فى أن يشتريها ! ها ! اختصروا الزمن ! اختصروا الزمن ! وهم بالجهد يجدونه .

قالت ، ومع ذلك يصر الأشقياء على أنهم اختصروه ! ويضربون لذلك مثلاً السيارةَ تطوِى المسافاتِ طىّ السحب . قلتُ ليكُن . اختصروه من جهةٍ وأطالوه من أخرى . لقد جاءونا بالسيارة ، ثم ألزمونا بأن نقطع بها مسافاتٍ لم يكن علينا قبلُ أن نقطعها . قديماً لم يكن ثمة ما يدعو المرء إلى أن يقيم على ضفة من النهر ويعمل فى أخرى . لقد كان يقطن ويعمل ويلهو حيث هو . فى بقعةٍ واحدة . واحدةٍ ولكنها تمثّل باقى الكرة . ذلك أنها وعتْ كل الجمال . إنها الغابةُ كانت . الدنيا مصغّرة .

ولكنْ ، ويا أسفا ! تغيّر الغرض أخيراً فانبغَى أن تتغير الوسيلة . جمح الإنسان فكان طبيعيا أن يبحث عن شىء سوى قدميه يسعفه . لقد كانت إذَن غلطةً أعقبتْها غلطات . خطأٌ اقتضاه سبْق الخطأ . وماذا يُنتظر من الخطأ إلا أن يطّرد متى وقع مرة ؟ تلك نتيجة تحتمها طبائع الأشياء . صوابٌ وخطأٌ لا يجتمعان ، وإلا

فارق الانسجامُ الشيءَ فاستحال . وهكذا تورّط الأنسان . والمسألة هى أنه ما كان يجب أن يجمع . ماذا تريدين ؟ إن سادتنا بعثروا الزمن .

قالت ، إلا إذا كانوا يقصدون إلى السرعة فى ذاتها . وتمهلتْ ريثما زمّت شفتها مستنكرة ثم استطردتْ ، لقد سمعتُهم يقولون إن السرعة أخت النشاط ، وأن الأنسان إذا ما ركض قطع طويلا وشاهد كثيرا . قالتها والتفتت تنظر إلىّ كمن تعتذر عن منطقٍ ظنت أنه أفحمنى ، ثم استدركتْ ، هكذا سمعتُهم يقولون .

وربّتُّ على كفها مطمئناً ثم قلتُ ذريهم وما يرجفون . ما كنا لِنُخلَق كى نعدو وإنما لنسير على مهل . نشاهد ثم نتأمل ونحلم . إننا نوجَد بقدر ما تتفتح قلوبنا للوجود لا بقدر ما نمرُّ به . إننا نفيد منه ما نهضم لا ما نزدرد . يجب أن نقف بالأشياء قليلا لنأخذ منها ونعطى . هذا الأخذ والعطاء هو لب الحياة . إنه هو عملية

الامتزاج ، وما خُلقتْ الكائنات إلا لتمتزج فتتوحد فتؤدى بَعدُ معنى .

إننا من دون الطبيعة ان نكون شيئا مفهوما . إننا نصبح عندئذ كوحداتٍ من أغنيةٍ عُزفتْ متفرقة ، يُعْوِزها الائتلاف كى تُنتج النغم . أو إننا نصير محض ظلال تدبُّ على الأرض سخيفة ، ولقد صرنا . الإنسانية الآن كمنْ قد تناول مخدراً . ترى ، وقليلٌ ذلك الذى تستوعب ما ترى .

وإن أصحابنا أُولاء مهما طالت بهم الحياةُ لقصيرةٌ أعمارهم ، لأنهم لا يفقهون لِمَرِّ السنين . إنها تتتابع عليهم وتمضى وهم عنها فى غفلة . ولذا فمن التجاوز أن نقول إنهم يحيونها ، لأن الإنسان لا يحيا وقتاً نامه . إنهم كأهل الكهف احتسب لهم الناس من أعمارهم جزافاً ثلاثمائة عام ناموها .

وطال بنا يومئذ الحديث ، وأنستْنا طلاوته وعثاء

السفر . وما أن خلّفْنا الصباح وراءنا بقليل ، حتى لاحت لنا أشجار الغابة من بُعدٍ كغمامةٍ كثيفة انعقدتْ في كبِد الأفق ، فتهللتْ أساريرنا جذلاً وسرعان ما دبّ فينا الحماسُ فضاعفنا خطانا .

في ربوع الغاب

وبلغْنا الغابةَ والوقتُ ضُحَى . قالت ، هنا ؟ نحطُّ رحالنا ؟ قلتُ نعم . وطرحْنا أمتعتنا أرضاً ، واثنينا لنتحّى العرَق .

وألقتْ نظرةً عَبْرَ الدغَل . وسألتْ ، ممّ نقيمهُ ؟ قلتُ ، كوخَنا ؟ من هذا القصب . وأشرتُ إلى أجَمٍ هناك .

وهوتْ تحت فأسنا الأعوادُ ، وتجمّعتْ من حطامها على العشب كومة . قلتُ هيا احملي . وتعاونّا على الثِّقْل معا .

وطفقنا نغرس الأعواد أرضاً ، وقالت ، هذا عشُّنا ثمَّ فلْناوِ إليه . وجلسنا مليًّا نستفيء فى قيلولةٍ ظلّه .

وتهالكتْ على منكبى قائلةً ، أوَما تحسُّ الجوع بعْد ؟ قلتُ بلى . وسنح غزالٌ فسدّدتُ إليه سهماً فقتلتُه .

وقالتْ ، ذا رزقُنا جاءنا . وأوقدَت الحطب . وأكلناها فى الأصيل وجبةً هانئة .

وحانت منى إلى الغصن التفاتةٌ ، فألفيتُ عليه جوْزاً يتدلىَّ ، فقفزتُ لفورى ، وفى مثْل خفة القرد تسلقتُ الدوحة .

ونادت من أسفل ، ألْقِ بها . قلتُ هيا تلقَّفى . وجعلناها بيننا يومئذ لِعْبة .

ولمعتْ من جذَل عيناها ، وتناولتْ حجراً فشجَّت جوزةً ، وأعطتنى شِقًّا ، وقالت ، وهذا شِقّى

فلمْ أكلْ إذَن .

وبدتْ كمنْ تتململُ ، قلتُ ماذا ؟ قالت بِي ظمأ . قلتُ دوننا والنَّبْعَ . والتقطْنا السيلَ من أفواه الحجَر .

وقلتُ وقالت ، لا مِنشفةَ اليومَ . وعدْنا نمسح الفم منا باليدين .

وسألتْ بعدئذٍ ، ألك فى نزهةٍ ؟ قلتُ نعم . ومضينا إلى بركةٍ غطَّى ماءَها البردى .

وجلستُ وجلستْ ، وأدلى كلٌّ يومئذ فى الماء بقدمين .

واعتمدتْ رأسها بيديها ، وبدت كمنْ تستغرق فى حُلُمٍ . وحلمتُ بدورى ، وراحت ورحتُ كمن كحَّل الوسَنُ منهما عينين .

ولمحتُ البصر منها شارداً ، قلتُ أين ؟ قالت ، أنا ؟ فى أعالى الدوح جوارحى . طليقةً هنالك مع العصافير .

ودنت منا بطة عائمة ، قلتُ انظري ! قالت نعم ! يا حسْنَها ! وأشارت ، ذاك أيضاً سربٌ من بجَع .

وسمعْنا عن كثبٍ جرْشاً ، وسألتْ ، قلتُ سلحفاةٌ تقْضم طحْلبة . وأضفتُ أما ترين ؟ جُعرورٌ هناك يداعب خنفسة !

وقهقهتْ ، قلتُ انصتي ! قالت نعم ! كروانٌ يغازل نرجسَة ! يا حُبَّهُ ! شغلتْهُ العيون الناعسة .

وصاحت فجأةً ، يا إلهي ! أفي الدنيا أناسٌ الآن يدْرسون الجبر ؟ وقهقهتْ ، قلتُ وثَمَّ عالِمٌ يكدُّ ليثْبت أن الأرضَ تدور .

وقهقهنا معاً وعقَّبتْ ، وهبْه ألفاها تدور ، أوَ يريد أن يدور معها ؟

واستلقينا ضحِكاً وأردفتُ ، ونائبٌ يخطب كي يُسقط وزارة ، زاعماً أن بينه والرعاعِ حبًّا جدَّ مفقود ، وعلِم الله ما تعَشَّق إلا كرسيَّ غريمه .

واستطردتُ ، ربَّ دجالٍ راح يتمشدق بحب الوطن ، وما غمزتْ عينه إلا للأصفر الرنانِ ، وللصولجان يمسك فى يمينه .

وهتفتْ ، هبهم أسندوا إليك وزارة ؟ قلتُ ألجُها من بابٍ وأهرب من آخر . وكررتْ ، هبهم قلَّدوك وساماً ؟ قلتُ أولىَّ الأدبار وأختبىء .

وأضفتُ ، نحن الشعراءَ سامِى المقامِ تهبط الألقابُ بأقدارنا . كل لقبٍ وإنْ علا ، نراه نحن دوننا . إنما الألقاب حيلة من تُعْوِزهم العظمة . إنها الأحمر تضعه الكالحةُ كى يقال جميلة . طلاءٌ مايخفى على ذوى الأبصار أمثالنا .

ومالت الشمسُ ، فأذا الشفق خضابٌ ، وإذا الماء حريق . وزرافاتٍ مضَى يتجمع الطيرُ ، وعلى قمم الدوح فى هرَجٍ يتدافع .

وتساءلتْ ، ونحن أما نثوب إلى وكرنا ؟ أوحَت

الطيرُ إلىّ أنْ نامى ، وذا النعاسُ بدت علىّ بوادره .

هتفتُ ، روحى ! فداكِ أنتِ النفسُ فيا . ونهضنا فتأبطتُ ذراعاً كالجبين .

وسمعتْ خشخشةً فى الطريقِ ، ولمحتْ بين الغصون عينين كشررٍ يتوقد . وصرختْ يا ضيعتَا ! أكلنا الوحشُ فما عادَ يُجمع لنا شملين .

وهمستُ ، لا تخافى . وأطلقتُ سهماً ، وهجم علىّ الوحشُ من حنقٍ وألقانى أرضاً ، وتصارعنا ، وأجْهز السهمُ عليه قبل أنْ يتمكن منى .

وأغمىَ عليها ، فحملتُها بين ذراعىّ ، وانطلقتُ صوب الكوخ أعدو . وعبرتُ جدولاً ، وسلكتُ مفازةً ، وصعدتُ رابيةً ، وهبطت وادياً ، وأخيراً وصلنا سالمين .

وفتحتْ عينيها عشـــاءً ، وشهقتْ ، أجرحَك الوحش ؟ والهفتا ! قد خدّشتْك مخالبه . وأشارت

لنُدوبٍ فى وجنتى .

وطمأنتُها ، وانكبَّتْ تضمد فى رفقٍ جراحى وتدللنى كما تدلل الطفل . وأحسستُ ليديها برداً وسلاماً ، وانتعشتْ روحى من بعد ضنىً ، وكأننى لم أنازل فى ليلى نمِراً .

وإذْ فرغتْ من العناية بى ، هتفتُ نجوْنا فلا نومَ الليلةَ ، ولْنحتفلْ بمولدنا الجديد حتى مطلع الفجر .

وسألتْ يومئذ ، أنرقص إذَن ؟ قلتُ نعم ، حتى نكلّ . ثم نجلس فأسمعك فى الهوى أناشيدى .

غايتى

كل ما يلذُّ لِى ، يبرر فى نظرى وجودى . وكل ما يسبب لِى النفور ، يجعلنى طفيليًّا فى وجودى . وعلى ذلك فكل ما لذَّ لِى ، إنما هو لِى غاية . وكل ما نفَّرنى ، قد يكون وسيلةً أو لا يكون شيئاً .

أمّا ما يلذ لِي ، فأن الذى يعينه لِي هو ميولى . وأما ميولى ، فتدل على نفسها بنفسها دون أن تحمل فى ذاتها أيّما تعليل . وبعدُ فأنا أحب الجمال وأكره القبح ، لا لشىء إلا لأنى خُلقتُ هكذا .

وميولى وليدة غرائزى ، وليس فى وسعى أن أتحكم فى غرائزى ، وأمْلى عليها ضروباً من اللذات تجهلها ولا تستطيع أن تفتعل الأحساس بها .

وغرائزى قديمةٌ فىّ ترجع إلى عهد جدّتى العريق آدم ، والذى نفسى عنه تلقّيت . فهى مرآة تنعكس عليها صور السنين ، ووترٌ ترجّع نغماته صدى الأجيال . إنها أزليةٌ هى كالوجود ، أبديةٌ مثله .

وإنى كلما تمعنتُ فيما تتمخض عنه من أحاسيسَ وميول ، لا أجد فيها إلا محض أحلامٍ وهواجسَ كلُّ مافيها أنها طريفةٌ مستحبة . ولكنْ ماذا يجب أن يحتاجه الشىء كيما يكون جديراً بالقيمة فى نظر الأنسان إلا أن

يكون طريفاً مستحبا ؟

فلا يذهبنّ بي الفضول إذن إلى أن أتبرم من ميولى وأجحد شهواتى ، لأنه ليس لي أن أفهم نفسى على غير النحو الذى حددتْه غرائزى . إذ مَن أنا وماذا عسانى أكون ، اللهمّ إلا تلك المجموعة الزائفة من الانفعالات التي تنعقد فتكوِّن فى النهاية شخصيتى ؟

وإنى كمتلقٍّ ميولى عن غرائزى ، أرى أنْ ليس فيها جديدٌ وقديم . فهى أزليةٌ أبديةٌ بالطبع كتلك الغرائز التى تنبع عنها . وإنه لقد تتهذب الغرائز ولكنها لا تتبدل ، بل لتظل أبداً الألوان المختلفة للجوهر الواحد . فالقِدم ثابتٌ لها على رغم تعاقب الحُقُب .

فأنا لم أزل أتأثر بجمال الغابة كما كان يتأثر بها سلفى القديم الممثَّل الآن فى شخصى ، وكما سأتأثر بها فى الغد ممثَّلا فى خلَفى . ومحالٌ أن أستطيع أن أقسر نفسى على أن أهيم حبًّا بقاطرة ، أنا الذى عشقتُ الناقة

منذ الأزل ، وشيبتُ على ذلك .

إن هذه الآلة الصماء ، لتتعوزها العراقة أولا كيما تستحق تقديري . العراقة في نظر دمائي لا عيني . دمائي التي دأبتْ على أن تعي من قِدم ، منذ جرت في عروق جدودي الأولين ، وقبل أن تنحدر منهم إليّ . أيام كانت حيةً تُرزق ، بينما أنا في عالم الغيب كنت .

أيتها البكماء التعسة ، لا تتيهي عليّ بجلالتك السريعة ومدخنتك ذات الشعير ، فأني مهما يكن من أمرك أحتقرك . إنك لدخيلة على ، تافهة ككل مستجدٍّ دخيل .

كم من الأحقاب ينبغي أن تمري به لكي تصبحي شيئاً يُذكر ؟ إنك لتحتاجين إلى مثل ما انصرم من عمر الأرض لا أقل . بل يقيني أن البلى سيدركك قبل أن تتمكني من أن تشقّي لك بين الكائنات العريقة مكانة . ما كان البقاء ليلحق تلك الترهات التي تتمخض عنها عقول البشر . ذلك الخلود وقف على ما تبدع يد

الخالق سبحانه .

إلى الجحيم إذن أيها الكائن المستحدث ! إن القِدم وحده هُو أساس القِيَم . ما نحن أنفسنا إلا أشياء قديمة ، أحبت فى حاضرها ماضياً عاش فيها . لو أننا سلخْنا عن أنفسنا الحُقُب ، لارتددنا كائناتٍ تافهة ، يُعْوزها الزمن الطويل كى تدخر فى كيانها ما تغلو به . إن كل يوم يمر على الكون ، يزيد قديمَه ثروة جديدة ، والأقدم فيه أغنانا جميعا .

إن الورود الأَلِقَة ، والعيون الناعسة ، والبلابل الصداحة ، ستظل هى هى شاغلة فؤادى وكل ذى قلب إلى الأبد . وأما الطائرة ، وأما المذياع ، وأما ما هو على شاكلتهما ، فسينقرض عند أول طوفان يكتسح حضارتنا ذات البهرج الكاذب .

هكذا جُبلتُ على ما إليه أميلُ وما عنه أصدف . وخليقٌ بى أن أنكبَّ على ما أحب ، وأنصرف عما أكره ، وإنى لفاعلٌ وقديماً فعلْت .

وإمّا رأيتُنى أحيانا أزاول ما أبغض ، فلِلأحقق منه بَعدُ ما أحِب . إنْ هو حينئذ إلا الوسيلة أتذرع بها لأحقق غاية .

وما دام الأمر كذلك ، فيجب ألاّ يفوتنى ، ونشاطى فى هذه الحياة محدود ، أنه لاينبغى أن أفنِى هذا النشاط كله فى الوسيلة ، حتى لا تفرغ منى الحياة قبل أن أصل إلى الغاية . إنه لَمن سَقَم المنطق أن آتى بالوسيلة لأسخرها فى خدمة الغرض ، فأذا بها تصرفنى عنه ، وإذا بِى أفقده فى طريق إليه .

معاذ السداد أن أسمح لنفسى بأن تتردّى فى سخفِ تردّى معاصرىّ فيه ، فيشغلنى العلم عن الشعر ، والعمل عن الفراغ ، والمادية عن المعنوية ، فأفقد بذلك غاياتى ، وأفقد بفقدانها مبررات وجودى .

على هذا النحو يجب أن أفهم نفسى وحياتى ، وأتصرف فى نشاطى ووقتى . أقدّر غاياتى وأدأب على

تحقيقها ، وأطلب الوسيلة بقدر ما أسخرها فى خدمتها فقط .

فأذا ما رأيتِنى يا حبيبتى أفرُّ بك إلى الغابة مخلِّفاً المدن ذوات الأنوار ورائى ، وإذا مارأيتِنى أعكف على فطرتى غير ملتفتٍ بالاً لحضارةٍ أراها عقيمة ، وإذا ما رأيتِنى أندفع فى حبك كما لو كان الذى بى مسًّا من جنون ، فما ذلك لأننى ضللتُ صوابى ، وإنما لأنى أُحسن فهْم نفسى .

نَفُور

لَئِن خدَشتْنى أظافرك ، فهذا أنت من قطةٍ برِّية ! إننى لأهواك شَروداً كالغزال النافرِ ، عنيفةً ناريةً كحبى . إننى أنا من نارٍ ، ولقد عشقتُ اللهب .

ما أجمل أن تلهب أظافرك المرهفة دمائى ، وتوقظ من غرائزى ما قد خيَّم عليه بالترف السبات ، فما أشعر

إلا وقد تضاعف إحساسي بذاتي ، وكأن حياة جديدة مضت تتدفق ساخنةً في عروقي .

ولا ضير عليَّ إنْ أنا سال دمي تحتها ، فلشدَّ ما أشعر عندئذ بلذة البذل في سبيلك ، كالوثنيِّ إذْ يحطم نفسه على صنمه المعبود . إن في بعض البذل لذةً تفوق لذة الأخذ أحياناً .

فأذا ما انقلبتِ طيِّعةً من بعد نشوز ، وارتميتِ بين ذراعيَّ مسلمةً إليَّ فمك في رضوخٍ فاتن ، غلوتِ في نظري بمقدار ما تكبدتُ من تمردك ، وعندئذ أفوز باللذتين .

لن تكون لاستسلامك فتنته ما لم تسبقه برهةٌ تكونين فيها نَفُورا . عندئذ تتيحين لي الفرصة كي أظمأ وأتمتع بظمئي . ثم إني حين أرتوي بعدُ أرتوي بشهية .

أحبك كالظبي يأرن قبل أن ألحق به . أحبك كالورد

يشوكني قبل أن أقطفه . أحبك كالشهد يلسعني نحله قبل أن أجنيه . أحبك أبداً تلهبين الفؤاد شوقاً إليك ، وتقضين فيه على أسباب المال ، فأظل عمري المدلَّه بك ، وما نخرج أبداً من جَنة حبنا .

الضَّعف

وهويتُ على وجهها بالسوط اثنتين . ثم ألقيتُ بسوطي ، وجلستُ في آخر الكوخ واضعاً ساقاً على ساقٍ أتأمل .

وصاحت ، لأيِّ شيء أنت تضربني ؟ واعجَبا لأمرك ؟ لستُ أذكر لي ذنباً . ذلك الظلم علامَ إذَن ؟ وتقلصتْ شفتاها لبكاءٍ وشيكٍ ، وللحال جرَت على الخدين منها دمعتان .

وأجبتُ لا ذنبَ فاطمئني نفسا . إنْ هي إلا نزوةٌ دفعتْني لظلمك . أردتُ أن أشهدك الساعةَ تبكين .

أردتُ أن أبصر حبّتيْ لؤلؤ . وتبسّطتُ مِلْءَ مقعدى ، وطفقتُ أهزُّ ساقِى فى نزقٍ كطفل .

وصاحت ، أيها المجنونُ ويْحك ! أهذه الحماقة تضربنى ؟ لَبِئستْ الرغبة ما جاشت بنفسك ! وكانت عن كثبٍ منها جرّةٌ فتناولتْها ، وفى مثْل غلٍّ محومٍ بها قذفتْنى .

ونحيّت رأسى عن طريقها فنجوت وطاش السهم عندئذ ولم يصِب الهدف . وشاهدتْ هى ما كان فانطوت على هزيمتها محنقةً ، وانفجرتْ فى حرقةٍ تبكى .

والتمعتْ عيناى من جذلٍ ، وضاعفتُ من حركة ساقِى ، وأضفتُ أن حشوت غليونى تبغاً وأشعلتُه .

ورفعتْ إلىّ عينيها معاتِبةً ، فأغضيت عنها ، وساءها عنادى ، وعزّت عليها نفسها ، فعَلا نحيبها واختلج منها الخد فى ألمٍ يذيب الحجر . ولبثتُ كما أنا أهز ساقِى ، ومضت الدقائق فلا الساق كلّت ولا

دموعها كفكفت .

تالله كان منظرها أفتن ما عينٌ رأت . كانت أدمعها تكاد بذوب مهجتها تلتهب . وكأنى بخدها المرتجف حينذاك ، يتلمس فى حرارة الدمع تلك المهجة الغالية وهى تنساب معه إلى حيث يذروها الفناء الذى لا يرحم .

وأخيراً لم أتمالك أنا الآخر أن ذرفتُ دمعة . لقد استحالت فى التو قسوةُ ما كانت فيه ، إلى حنان فىّ أمرٍّ وأقسى . وكأنما وجهها المعذّب عندئذ ، انعكس على قلبى ابتسامةً وادعة . ابتسامةً يحدوها عطفٌ ماحِق ، خلتُ معه مهجتى تتفتت .

وهكذا انقلب للحال عنفى ضعفاً مطلقا . ضعفاً لمستُ الفناء فيه عن كثب . أفلهذا إذن قسوتُ لأرحم ؟ ولأذوق فى هذه الرحمة بعض فنائى ؟

أبمثل هذا الفناء يغرينا الحب ، فنمضى نبحث عن مواطنه بين دموع الحبيب وعذاباته ، حتى إذا ما ولجناها

وفنينا فرقاً عليه ، عدنا ومن حيث لا نشعر ، أقوى ما نكون إحساساً بالحياة ، وأكثر اعتداداً بأنفسنا التي أنكرناها في سبيله ؟

أهو الحب فناءٌ نرتضيه لنظفر بالحياة فيه ، وضعفٌ نستكين إليه لنحسّ قوةَ الجمال منه ؟ أحقًّا إن للجمال سلطاناً كلما أثّر فينا انعكستْ قوته علينا ضعفاً نصل إلى الأحساس بها عن سبيله ، فيقال أحببْنا وما نحن إلا أمام جمالٍ قهر منا الفؤادَ فانهزم ؟ لمَ إذَن لا نجد الضعف لأنه الحب ، وقد مجّدنا القوة لأنها الجمال ؟ لمَ لا نفعل ، وليس ثمة قيمةٌ لجمالٍ بغير حبٍّ يحسّه وينوه به ؟

وأفقتُ من خواطري فأذا بقدمي تسوقاني إلى حيث كانت حبيبتي جاثيةً تبكي ، وللحال هتفتُ بها من أعماق الفؤادِ أنْ سامحيني يا منَى النفس سامحيني ! وطوقتُ عنقها ، وانفجرتُ باكياً في غير هوادة .

وأجهشتْ تأثراً واستطردتُ ، أنا ما أبكيتك إلا

لأبكي لأجلك ، ولا أذللتك إلا لأذلّ لك . هأنذا أنظر إلى عينيك لأبكي بدمعك . هأنذا أتلقى أنفاسك لأتنهد بقلبك . هأنذا ألمس حرارتك لألتهب بوجدك . هأنذا أضمك إليّ لأفرغ فيّ ألمك . جفّي دموعك ، كم أحب بكاءك وكم أضنّ بدمعك .

وبكينا معاً ، وفنينا معاً ، ثم عدنا فأفقنا ، وكففتُ وكفّت عن البكاء ، إلا من شفةٍ منها ظلت ترتجف .

وكأني بهاتفٍ دوّى في أذنيّ وقتئذ يقول : قدّستُ شهواتي فاستسلمتُ لها فما رأيت كالضعف لذة . ونظرتُ لنفسي فوجدتُني أفنى في النهاية فتذروني الرياحُ فأحببت الضعف في نفسي .

نحن الأناسيّ مَن نحن مِن شهواتٍ جُبلْنا ، محالٌ أن نتذوق اللذة إلا أن نفسح لها مكاناً من ضعفنا . هبوا أننا بالقوة حقاً تذرعْنا ، واستدرنا على شهواتنا فأعملنا الهدم فيها حتى تحطمتْ ، فماذا يبقى لنا من

بعدها لكى نعيش ؟ شهواتُنا ! هل نحن إلا شهواتنا ؟

فيا أيها العقلاء كونوا أوفياء لضعفكم الذى كُتِب عليكم ، فأنه السبيل إلى كل حياةٍ رغيدة . إنما هذّبوه يرتدّ إليكم نبيلاً ، ويردّكم سعداءَ فى غير ما عار أو تَرَدٍّ . فشتان بين ضعفٍ ورخاوةٍ ، وبين أبيٍّ من البكاء ورخيص . ويا رُبَّ باكٍ تبكى معه ، وآخرَ تود أن تصفعه .

ألا وتجنبوا القوة الغشومَ فإنها لَوليدة الجمود وعنوان الضعة . وكأىٍّ من قوةٍ طمستْ على الفؤاد ووأدت الحلو الرفيع من شمائله فخلّفته قفراً موحشا . وكأىٍّ من قوة أيضا صدّت صاحبها عن ذكْرِ الجمال وفوتت عليه ما جَلَّ من نعمته . فاحذروها يا أُولى الألباب تفلحوا وتعيشوا آدميين جديرين باسمكم .

وسكتَ الهاتفُ ، وصحوتُ من حُلْمى ، فأذا بحبيبتى بجوارى مطرقة . وتعاتبْنا قليلاً ، وتصالحنا

جميلاً ، ثم قمنا فرقصنا ، وكانت رومبا هذه المرة .

وإذ نحن نرقص ، مرَّ بنا نسناسٌ ، فاستدرج قدميه النغمُ ، فحاولَ فتعثَّر ثم ما لبث أن اندمج فى الجو فرقَص . ورقصنا ثلاثتنا ، ولست أدرى أقد استأنس النسناس يومئذ أم نحن توحشنا .

غـــزَل

عنـدما تزجرينى فأقبِّل فمكِ ، وتنحِّينى فألثم فى ذلٍّ يدك .

وعنـدما يمتزج بعينيـك بريق الزَّهْـو لانتصاركِ بإغضاء الخجل من فاضح معناه ، فأذا بلحظك يتردد ما بين ملتمعٍ وخابٍ كالبرق لاح من وراء غمام .

وعندما تجلسين هنـاك فى أقصى الكوخ تخالسيننى النظر من آنٍ لآنٍ ، وقد شُرِّبتْ وجنتاك بحمرةٍ هى من الاعتزاز بفوزك والخجل من ذلى خليط .

وعندما أجلس تائه العينين ، أرقب فى لذةٍ قوّتى وهى تتلاشى أمام حبك ، وكبريائى وهى تهوِى أمام سلطانك .

وعندما أنهض من مكانى وجِلاً لأعود إلى مداعبتك ، متوقعاً من حلو أذاك المزيد .

وعندما تستسلمين بعد تمنُّعٍ إلىّ ، فما ألبث أن أطوق جذعكِ بذراعين تكادان من فرط الشغف تهصرانه .

وعندما نغْمِض بَعد ضنًى نستريحُ ، وقد اعتليتِ كطفلةٍ ركبتىّ ، وعلى صدرى الحنون ألقيتِ برأسك .

هنالك يا حبيبتى يخالط أعينَنا ما يشبه الوسَنَ ، فترى فى نومنا الكذوب أروع الأحلام .

حبذا أنت من وردةٍ أشُمُّ بعد أن يدمينى شوكك ! ما أنت حسناءُ والله إلا بشوكك هذا .

العودة

قلتُ مضى علينا شهرٌ هنا . أكدّت الغربةُ فيه حبّنا . أوَما قدِمنا الغابةَ والقمرُ بدرٌ ، ثم هو بعد إذ غاب الليلة يكتمل ؟

ولمْ تجب ، مما روّعنى ، وأطرقت . قلتُ ما بك ؟ أوَ نحزن وذا الأفقُ أمامنا رحيبٌ ، وشجر السنديان ذا من حولنا ؟

وجرت منها دمعةٌ وغمغمتْ ، معاذ الله أن نشكو الملالَ ، وبين جنبينا آنسنا حبُّنا . ولكنّ شوقاً عاودنى لمهدى ، وللأهلين ممن تركْنا خلْفنا .

وحننتُ لقصرٍ شببتُ فيهِ ، وبستانٍ شبّ فيه قديماً وجْدنا . وطُرُقاتٍ عليه عدوتُ فيها فى الأصائل طفلةً ، لمْ يزد طولى يومها عن إصبعى . وبرْكةٍ كم دلّيتُ فى مائها قدمىّ ، فجاءنى من أقاصيها البطّ

يلتقط الحَبَّ من راحتي .

وحننتُ لأبٍ قد كان أكرم مثواىَ ، وأمٍّ أرضعتْني الوفاء في لبنها . وإني لأهلي يأتونني في الرؤى بُكيّاً ، فألوم عقوقي ، وأقول يا ليتني هواي ما أطعتُ ، وللأبرار من أهلي نفسي ما تنكّرت .

ذاك حالي مذ ذكرتُ مهدي ، ليس يهدأ لي بالٌ لا ولا يهجع لي جنب . ومن البر بمهدي أنْ لست أنساهُ ، وبالأهلين أن أظل أذْكرهم وإنْ قَدُمَ العهد .

كل وطنٍ أحق بأهليه ، وكل قومٍ بذويهم هم أوْلى . فهلاّ إلى بلادنا عدنا ، وأقمنا في حماها وكرنا ؟

هتفتُ أصبتِ فأنا أيضاً نازعتْني للمهد نفسي ، ولكنْ أوَنرحلُ والنبتُ الذي غرسْنا نما ، وعلى عشّنا اللبلابُ عرّش وازدهر ؟ وحمامُنا الذي صدْنا ، أنسيتِ أنه باض الصِّغارَ ، وأنّ أفرُخ البط ريشُها قد بزغ ؟

وأرانا قد أنسْنا للوحوشِ ، يا حبيبتي بل وإخال

الوحوش قد أنِستْ لنا . وذى لحيتى قد نمتْ كالعشب طليقةً ، وذا شَعرك المنكوش شَروداً قد نما .

إننا وربىِّ توحشْنا أو كدنا ، ككل برّىٍّ على الفطرة حولنا . فكيف بَعدُ نطيق الحياة بين قومٍ جِدٍّ ناعمين ، ونباتاتٍ من الترهف شبّت ضامرة ؟

وغمغمتْ ، لا مراءَ فكل شىء هنا جميلٌ ، ولكنْ ساعةً فى بلاد المهد نقْضيها وبين ذوينا الأقدمين ، تفْضُل الدنيا وإن جُمعتْ فى غابنا . آه ، ليتهم همجاً أهلُنا كانوا ! ليت هذه الغابة كانت مهْدنا !

قلتُ ، وا أسفَا إذنْ ! أوَيُكرهنا الحنينُ على الرحيل لأرضٍ لولا الأهل ما استحقت حبنا ؟ ولكنْ كذا الوفاء بنا شاءَ ، فهيا احزمى المتاعَ وغداً لديار المهد نزمع سيرنا . وسلامٌ على الغاب سلامٌ عاطرٌ ، وعلى أيامه الغُرِّ أحْلى عمْرنا .

عتاب

سألتنى متجهمة ، أيها الخائنُ مع مَن كنت ؟ قلتُ متى ؟ قالت أمسِ ، أوَما تذكر ؟ أيها الخائن أنت ! ومضت شذراً ترمقنى .

وغمضتُ ، وفيم الغضب ؟ أوَمن حرَجٍ على إنسىٍّ أن يلتقى بعدُ بإنسِى ؟ وضيَّقتهُ ساخراً جفنِى وابتسمْت .

صاحت ، أتتهكم بِى ؟ كلاّ أيها المتخلقُ ما مِن حرَج . إنما الحرَج بَعدُ أن تقبِّل فاها . وكررتْ فى حنقٍ ، أيها الخائن أنت !

وتمتمتُ ، ومَن نبَّأك ؟ قالت ، أوَتنكر ؟ إنى رأيتكما . أوَما بالزمالك ليلاً كنتما ؟ وتوقفتْ ريثما أنفاسَها تلتقط .

وشددتُ من غليونى نفَساً ، واستطردتْ فى ألمٍ ،

نعم رأيتكما . ووددتُ لو أغمضَ الموتُ عينيَّ وأنى لا أراكما . وبكت .

وسكتتْ ، وتوجعتْ قائلةً ، آه ! إن قلبى ليغلى كمرجل . وجسدى ليتداعى كحطام وقودٍ يحترق . حسبىَ الله ! فيك يا مَن شرَّدتَ بالغيرة الحمقاء روحى . فكأنى بها من فرط ما طوردتْ وتطارَد ، بالعدم لاذت وفيه راحت تنسكب ، حتى لأذوق فى حينى لا سامحكَ الله يا خائنُ بعضَ الموت . ولفظتْها آهةً حرَّى ، ثم عادت تبكى وترتجف كطائرٍ ذبيح .

وصفَّرتُ فى طربٍ ، ولوَّحتُ ثلاثاً بعصاىَ فى الهواءِ ، ورأتنى فعلا نحيبها كنْ ساءها فى محنتها أن أبدى الجذل .

ولمْ أرتدع ، وواصلتُ صفيرى غير متورِّعٍ ، وزدتُ أن داعبتُ كلبها فى خلوٍّ بالٍ يغيظ الحليمَ بلهُ النزِق .

ولمْ تطِق ، فصاحت ، دع كلبي . ما شأنك أنت ومداعبته ؟ يا رديءُ أنت ! وجذبتْ كلبها ، وفي غير ما ممانعةٍ تركتُه .

ولمْ تكتفِ فانفجرتْ صائحةً ، كيف تُغفل شأني ؟ كيف لا تحركك دموعي ؟ أيها البارد أنت ! أوَما تخجل من ذنبك ؟ أوَما تبدي الأسف على الأقل وتعتذر ؟ واسترسلتْ ، وقلّبتُ شفتِي في احتقارٍ وبالصمت لُذْت .

وجُنّ جنونها ، وغلتْ حدةً ، فصاحت ، صنمٌ أنت ! حجَرٌ وأبلد من حجر ! يا صفيقاً أنت وجهك ! يا ثقيلاً أنت دمك ! وهمّتْ تلطمني .

ورددتُها في لطفٍ أوغرها واستطردتْ ، ويحك ! ماذا عساني أفهم ؟ بم أؤوِّل عدم اكتراثك ؟ أقد كرهتَني إذَن ؟ أحسب ذلك . أو فقُل لِي كيف يسْخر الحبيب من ألم حبيبه ؟ كيف لا يدرأ عن نفسه تهمةً

فى الهوى وجّهتْ ؟ تكلمْ . أبِنْ . قل إنك لم تعُد تبقِى علىّ وأرحنى . قُل إنك لا تود أن ترى بَعدُ وجهى . قُل أيها الغادر . يا أخسّ من نكث فى الخائنين بعهده .

وجمعتُ أطراف ابتسامتى وأجبتُ ، معاذ الله أن أتبرّم بوجهك ! إن وجهك ليسرُّ الناظرين . أوَما ترين كيف أنه ما ينفك يبعث المرح فى قسماتى ؟ أو فعلامَ تداعب الابتسامةُ فمى كلما رفعتُ عينى فرأيته ؟

وقاطعتْنى ، صه يا وقح ! ما هو وجه قرقوز حتى يضحكك . عجباً ! أوَما تزال تبتسم ؟ ألا كُفَّ من فورك عن هذه الفعْلة المقيتة . كُفَّ عنها قلتُ لك أو أخنق نفسى . واهتزت فى حركةٍ عصبية ملكتْها من الرأس إلى إخمص القدم .

وقهقهتُ طويلاً ، وصفقتُ بكفىّ مرَحاً ، ثم هتفتُ ، حبيبتى ! فداك أنت رقبَتى . بل وزمارة رقبتى .

وكررتُها ، ثم طفقتُ أموه مقلِّداً القطط .

وأنتَ في قنوط الجريح وتمتمتْ ، وغدْ ! في أسفل الدرَك تردَّى . أمِنَ المروءة يا هذا أن تهزأ بمن أحببتَ وإن أنت جافيْته ؟ يا لِضيعة خلُقك ! يا لخيبة أمل ذويك فيك ! فلْأذهب من هنا . إنه لَمن العار أن أبقَى في مكان أنت فيه . وهممت بأن تسير خُطاتها قواها وتهالكتْ على الأرض خائرة .

وذكرتُ محنتي فقطبتُ وجهي ، وفي لهجة الجِد هتفتُ ، كلاّ ما أنا بوغد . لا ولا بالناقض العهدَ أو الخائن . ورميتها بنظرةٍ صاعقةٍ ، ثم استدرتُ على عقِبيّ أذرع المكان ذهاباً وجيئة .

وفوجئتْ بتنصلي فتعجبتْ ، كيف وأنت مَن رأيتُ أمسِ عارك ؟ وبعينيّ هاتين رأيتُه ؟ وأضفتُ ، كانتا جميلتين . وكما يضحك التعِسُ أحياناً ضحكت .

وقرضتْ على أسنانها غيظاً وصاحت ، كانتا ؟ بل

وما تزالانِ ، وعلى الرغم منك ومن حداثتك الجديدة ، فقاطعتُها ، أحسن من غرابك .

وانتفضتْ فجأةً كمنْ مسَّها جنيٌّ وسألتْ ، ماذا تعنى ؟ مَن ذا يكون غرابى بربك ؟ قلتُ ، جارُك .

وامتقع لونها واستطردتُ ، كمن صحبتِه إلى الحديقة ليلة عيد ميلادك . أوَما تذكرين ؟ ليلةَ إذْ قبَّل فمك بمنقاره ؟ ليته ترك فيه خنفساء ! ورمقتُها فى ازدراءٍ ، وبوجهى عنها أشحْتُ .

وانطوت على نارها خارسة . لم تكن تعلم أننى أيضاً رأيت مثلما رأت ، وآثرتُ يومئذ أن أتجاهل لأعاتبها بَعدُ على طريقتى .

وللحال انقلب لومها اعتذاراً ، وتجهمها وداعةً ومذلة . ولكن ، هيهات ! إن القلب كان قد جرِح . لم يكن فى وسعه قط أن يرقَّ لذلتها .

وتوسلتْ كثيراً ، وبكت طويلا ، غير أنى ولَّيتُها

فى أثناء الحديث ظهرى وانصرفت . لقد كان تمّ ما أردتُ ، ولم يعدْ لى بَعدُ ما أعمله .

وإذْ بعدتُ عنها قيد خطوات ، لوّحتُ لها بيدى مودعاً ، وأنا أصيحُ ، عودى إلى غرابك . ويممتُ وجهى شطر من زعمتْها حدأتى .

ووالله إنها بالنسبة إلى جمالها لكذلك . نعم ، هى جِدُّ حسناءُ ، ولكنها بجوارها حدأة .

وكان عتاباً . وكان فذّاً . وكان عتاب الأبد . ومنذ ذلك اليوم ، طويتُ أعزَّ حبٍّ علىّ ، وطويتُ قلبى معه .

وبَعدُ ، لقد كنا فى الغابة ناعمين . لم يكن ثمة ما هو بالأثم يغرى . ولكننا تنكّرنا لها وعدنا إلى موطن الشر فاحترقنا به . أيتها المدنُ لكم أنت آثمة ! وإن أهلك لَمَا هم يتورعون .

غضب

بقدر ما أحبك ، أغضب منك . لأنى أحفل بأقل شيء ، عندما يكون الأمرُ عندى كل شيء .

إذا حانت منك إغضاءةٌ واحدة ، أحسستُ باليأس يدب فى قلبى . فأخاصمك ، لأنى أضن حتى بالذى لا يُذكر من حبك . إما أن تكونى لِى كلك ، وإما أن أثور على نفسى فأتحدى جنونى بك .

لَئِن قُدِّر لِى أن أفقد بعض نفسى ، لأدفعنّ إلى الانتحار بقية نفسى . التوسط عندى أدنىَ من الحرمان . فلَكِ أن تمنحينى كل شيء . وإلا فأنى لا أرغب فى شيء . إن دموعى وإنْ قستْ ، أرحم بِى من فاتر ابتساماتك . وموتى وإن قُبح ، أحَب إلىّ من أن أعيش بنصفى .

ليس من حقى ولا فى مقدورى ، أن ألزمك بأن

تشغفنى بى وحدى . ولكنْ من حقى ، إذا كان فى مقدورى ، أن أختفى إذا لاح فى الأفق غيرى .

وعندما خبرتُ نفسى ، تبينتُ أن ذلك فى مقدورى ، لا لأنى فاتر الحب ، وإنما لأنى حديدىُّ الإرادة . هينٌ علىّ أن أرقب نفسى وهى تتحطم على صخرة شهواتها ، ما دام ذلك بإيعاز إرادتى . إنى لأشفق عليها أن تتخلى عن مطامعها ، كما أربأ بها أن تذل لها ، ولكننى أرضى لها أن تتحداها فتشقى بل تندحر من أجلها .

يخدع الإنسانُ نفسه إذا ظن أنه عندما يهرب من مطامعه يتخلص منها . إن الأمانى الضائعة لا تموت ، ولكنها تكمن فى قرارة النفس . فتذلها إلى الأبد . ولكم يفر الإنسان من اللغز العويص ويحسب أنه قد حله ، ولكنه لا يلبث أن يتنبه للألم الدفين يمتص فى الخفاء دمه .

هجرتُك يا من كنتِ حبيبتي ، وشد ما هالني أنه كان في استطاعتي هجرك . لأني مذ آنستُ القوة في إرادتي ، رحت أتوقع لنفسي ما لا طاقة لغيري به من الألم . ذلك أني دأبتُ على محاربة حبك فلا أنا انتصرت ولا أنا تراجعت ، فتكرّر مصرعي بتكرار هزائمي حتى غدت حياتي سلسلةً من الموت .

غير أني التمستُ العزاء لنفسي عندما تبينتُ أن آلامي تخالطها شجاعةٌ وإباء . لأني لم أتخلّ عن حبي فأجحد به ، وإنما أبقيته وتألمتُ في سبيله . فكنتُ في ألمي شجاعاً ، وكنت فيه وفيا .

ما أنا من الجبن أو العقوق حتى أنسى أيامك التماساً لبرئي . كما أني لست من الهوان بحيث أواصلها معك . فلتذهبي أنت إذن ولتبقَ ذكراك حيةً في الفؤادِ ، تذيقني من العذاب ما هو جدير بعظمة قلبي وبحبي عندما كان .

وإلى الجحيم أيتها الخائنة . إنك تستطيعين أن

تسلطى علىّ من الألم ما يَقتل ، ولكنك لن تستطيعى أن تُذلى كبريائى . ما ذَلّ قطُّ امرؤٌ استطاع أن يحمل ألمه بين جنبيه .

تمـــرد

زائفةٌ لو علمتِ كلُّ فتونك . عظمتى هى كل شىء . إننى لأرضخ أحيانا لسحرك ، لأهضمه فى عبقريتى وأُخرج صوراً منها عن سبيله . إننى النحلة أُحيل عصيرك التافه شهداً ذا شأن .

إن عظمة أشعارى ، مدينةٌ لشخصى قبل أن تكون مدينةً لجمالك . لولاى أنا ما أصبحتِ شيئاً يُذكر . كل ما فى عينيك من سحر ، وما فى ابتسامتك من إغراء ، خاضعٌ لأتون قلبى الذى يَخلق منه ما هو أروع . إننى أنا الخالق أهَبُ الخلودَ جمالَك الفانى بعبقريتى .

ولكن تلاعب بي حيناً فتونك ، فلأمرٍ ما في نفسي أدعه يتلاعب . إنني لأدللك كما أدلل كلبي الصغير لا أكثر . ولقد أسمح له بأن يعتلي منكبي ، لا لشيءٍ إلا لأنني أريد أن أضحك لحظةً من غروره . ولو شئتُ لأبيْت . ولو شئت لرفعتُ السوط في وجهه . كل شيء برغبتي أنا .

عندما تتوهمين في ساعات جنوني أنكِ كلُّ شيء ، يغيب عن بالك أنني لا أبتغيك سوى قربانٍ لأشعاري . ولو علمتِ الحقيقة لأفقتِ من صلفك ، وأدركتِ عِظَم الفارق ما بيني وبينك . إنك تنظرين إلى هذه الساعات التافهة ، كشيءٍ قائم بذاته ولذاته . أما أنا ، فآخذها على أنها السبيل لشيءٍ أجَلّ .

ويلٌ لك اليومَ الذي فيه أبغضك ! إن جمالك عندئذ ليصبح يتيماً كزهرةٍ مهجورة . عيوني أنا هي كل شيء . إنها هي التي تنوه بهِ ، ولو شاءت خلّدتْه .

إنك غداً فانية ، ولكنك ستحيين فى أشعارى . ضمْن خلودى أنا ستخْلدين . ما أنت إلا كائنٌ صغيرٌ فى مملكتى الواسعة . إنك موكولةٌ بى ، معلّقةٌ بمصيرى ، وهذا ما يحدو بى إلى أن أسُودك .

أيتها الزهرة المغرورة ! تعالىْ أمتصّ إلى حينٍ رحيقك ، ثم ألقِى بك فى ممشَى حديقتى . وهنالك ومن برجىَ العالى ، سأعكف على استذكار الساعات الفانية والتغنى بها ، وعندئذ فقط ، يكتَب لك الخلود .

غرام جديد

إذا آب الرسول ، فسأتنهد ، وأتنهد طويلا . لأنى لا أعلم ماذا يخبِّئه لِى القدَر بين شفتيه .

رُبَّ كلمةٍ تفوهتْ بها الجميلة ، كتَبَت اليوم مصير قلبٍ على مثْل جَرِّ الجمر يرقبها . فتنيله الأملَ الذى عزَّ ، أو تردُّه منطوياً على حُرقته .

تسألونى مَن هىَ ، أفما رأيتم قط الجمال فى عنفوانه ؟ هى مَن علّم البانُ قدّها رقْصتَه ، هى مَن أعار الدجى شعرَها حلْكتَه . هى مَن كحّل عينيها مِرْودُ الليلِ ، وأشاع الضياءَ فيهما لمْحُ الشهُب . هى مَن صُبّ مِن شُكْلاتٍ خدُّها ، هى مَن طُبع مِن بنفسجٍ خالُها ، هى السمراء مَن جعلتْنى عن شقرائى أميل .

يا فتاكة اللحظ كفتكِ القضاءِ ، يا ماضيةً أنت كالسهام لحاظُك ! يا مَن رأتك العين أول مرةٍ ، وأحبّك الفؤاد من أول نظرة ! أتُرى الغداةَ يقدّر لقلبينا لقاءه ، وعلى شفتيك أنسَى شقائى القديم ؟

وهل الرياض التى لمحْتك العشيةَ فى طرقاتها تخطرين ، تيّاهةً على الفصل بسمرة لونك ، مختالةً على الزنبق بسخونة لحظك ، سيُكتب لنا فى خمائلها حبٌّ جديد ؟

لِمَ أبطأتَ عليَّ أيها الرسولُ ، وتركتَ مهجتي تنتفض من القلق ؟ إن قلبي لَيناديك ، وروحي لَتُهيب بك وتدعوك ، أيها الرسول يا من حُمِّلتَ مصيري .

عُدْ إليَّ وخبِّرني كيف كان وقْعُ خطابي عندها ، وماذا من نصيب الفؤاد خطَّتْ يمينها ، أيها الرسول يا من أخذتَ صبري معك .

إنْ تَقبلي اليومَ يا سمراءُ حبي ، فخذا أنتِ بنفسجةً أخْلفتْ زنبقة ، أو شُكْلاتةً من بَعد فُنْدانة . وإنْ ترفضي ، فيا شقاءُ إذَنْ أقِم ، ويا قلبُ بُؤْ بالحسرتيْن .

غادة القدَر

أيتها السمراء الفاتنة ! أنتِ يا ساخناً لونُك المحروق كأتون قلبي ! تالله لأنت غادة القدَر التي

حكوا عنها .

لم يكد يمسُّني العشيةَ سحرُك ، حتى أصابني على الفور منه مسٌّ من الحب . وكما يدهم انقضاءُ القلوب الآمنة ، دهمني جمالك فلم يُبْقِ فيّ على صوابٍ أو يذر .

لا تذكِّروني فإن الفؤاد ليرتجف من حمَّى سحرها . آهٍ لو قدِّر لليد يوماً أن تمسَّ إهابك ! إذن لخلتُني مصعوقاً لساعتي كمنْ لمستْه كهرباءُ ليست تترفق .

كأن جانًّا والله ذلك الذي مسَّ جسدكِ وبالسحر أفعمه . لأقسم بالشيطان الذي تقمصك ، إنك لعلىَ البشَر أخطر من مُشعْوِذٍ أو ساحر . لئِنكِ أنت الشيطانُ نفسه ، مَن علَّم السحرةَ السحر .

عجباً لعينيك ليلتئذ تتألقان كماستيْن ذاتيْ وهَج ! وأعجب منهما ابتسامتك تبعث النور حولها غيرَ منظور .

كأن مِن عالَمٍ مسحورٍ كان إشعاعه . يُغْشِي وهَجُهُ الأبصارَ وما تراه العيون . كلاّ ، ما هو نورٌ كالنور ذلك الذى شعّ منك ويشعّ .

يا عفا الله عن الأقدار التى ألقت بى فى طريقك ، وساقتْنى إليك كما تسوق الفراشةَ نحو مصباحها ذى اللهب . تلك المسكينة مَن تدفعها إلى الهلاك شهوةٌ أزلية . تجوب ليلها الآفاق تبحث عن قبَسٍ يحرقها . وما إنْ تلمح من بُعدٍ شمعة ، حتى يُجنّ جنونها وتُضاعف الخطى فى غير روية . ولأمرٍ ما جهله الناسُ وتجهله ، تقحم نفسها فى اللظى . جِدُّ نشوانةٍ بسناهُ مع أن الحِمام تَلْمس فى أواره .

كذلك كنتُ يا سمرائى عندما أبصرت لأول مرة نورك . تالله ما قلّ سرعةً فى الفتك عن السراج إذ يلتهم فراشَه .

أبداً ما أمهلتِ الفؤاد حتى يتبصر . لمْ يعتمّ أنْ بدا

سحْرك ، حتى بهرنى ، وكأنى لفرط ما رأيتُ لم أعد أرى . كالعين إذْ ضحىً تتفتح للشمس السنية .

وكانت نظرةً ألقيتُها ، لم أُفِقْ بعدها إلا على خفقات قلبى . وصحوتُ ، فإذا بنور عينيك قد استحال فى الجوانح ناراً ، وسمرة خديك فى الضلوع لهيبا .

أيتها السمراءُ حبذا أنت تذيبين الفؤاد صبابة ! على الرحب من قلبى حبُّك الجديد وحسنُك قاتلى . ذلك القتل أنا جِدُّ مشتهيهِ من يدٍ قطُّ ما عَرفتْ هوادة .

ليس حبًّا ما أمهَلَ القلبَ أو جمالاً ما قاومتْ سناهُ العيون . ولقد رضِينا ما ارتضاه القضاءُ ، وفى سبيل الجمال يا قلبُ ما تلاقِى فى الهوى .

النظرة الأولى

لو لم يحبك قلبى لأول وهلة ، لمَا صدَّقتُه إنْ هو أحَبك بعد حين . لأنه وإن يكن فؤادى سيخفق ،

وأنفاسي ستضطرب ، ونفسي ستستسلم إلى عبث الأحلام ، إلا أن هذه المظاهر وإن التبست بالحب لا يمكن إلا أن تكون كاذبة .

كل حب يدخل القلبَ على مهل ، فهو إذَنْ على ألفةٍ قام لا على دهشة عينٍ رأت . وبعيدٌ أن يكون الهوى صادقاً إلا أن يكون الإعجاب مُوقد ناره ، لأنه ليس سوى ذلك الإعجاب قد اعترته حمّى .

كم من وجوهٍ نراها فلا نحفل بها ، حتى إذا ما ألِفناها توسمنا فيها الجمال الذى ليست منه على شيء . وما كانت الوجوه لتتغير ، ولكنها العيون يضللها التكرار فتنخدع ، فما أن تدمن النظر إلى شيء حتى تتجرد من أهلية الحكم عليه .

فأذا ما رحنا نتبدله فى غرامنا الزائف ونبنى على أوهامه القصور ، فيالِخيبة الأمل عندما تنقشع الغمامة عن العين فتبصر ، وتهدأ الثورة فى الفؤاد فيثوب .

عندئذ يتحطم التمثال الذى قضينا العمر فى تشييده ، ولاتَ وقتٌ وشبابٌ لكى نقيم سواه .

عروس الخيال

إننى إذ عولتُ فى حبى على النظرة الأولى ، إنما عولتُ على العين مجردةً عن المؤثرات ، والعين لا تكون صادقةً إلا أن تكون مجردة .

وما كان لى يا حبيبتى وبيننا ما بيننا من تمازجٍ أزلى ، أن أسمح لنفسى بأن تمتحن جمالك ، لأننى وإن أكن لم أرك قبل الآن إلا أننى لم أجهلك . لم أجهلك لأنك منذ ارتسمتِ فى خيالى كعروسٍ له ، فقد تمّ ما بيننا التعارف ولم يبقَ إلا أننا نتلاقى . فأذا تلاقينا فليس لنا إلا أن نتبادل التحية بالقلوب ، ولكنّ أحداً منا لا يسُوغ له أن يسأل الآخر من هو .

منذ أن عرفتُ فؤادى ، عرفتُ صورةً فيه تعيش

مقنَّعة ، وعبثا على رغم الجهود حاولتُ أن أعرف لمن تكون . وكل الذى أذكُر ، أن وجهها كان يبدو من تحت الغلالة وسيماً يسرُّ الناظرين ، وإن كان ما أفصَح قطُّ عن قسَماته .

وهكذا طفقتُ أهيم بحسنٍ غير منظور . لا أملك منه سوى صورةٍ فى الخيال استقرتْ غامضة . ولكم خلوتُ لنفسى فى الليالى أناجيها وأبثها الهوى على ما بيننا من حُجُب . ولكم تملَّكنى الأسى لغموضها ، ووددت لو عثرتُ بها فى الدنيا على شبيه ، يجلوها لِى ويفسر من ملامحها ما التبس ، ثم يكونَ سفيرى عندها أبعث إليها بأشواقى عن سبيله ، وإذا الفؤادُ المستهام ناداها يجيب .

إلى أن جمعتْ يا حبيبتى بيننا المصادفات السعيدة ، فما أن انعكس وجهك على مرآة خيالى ، حتى شفَّت من تحت ألواحها البلورية قسَماتُ محبوبته الغامضة ،

وإذا بالغلالة تنحسر عن وجهٍ جميل ، لم يكن إلا نسخةً مطابقة لوجهك .

عندئذ أدركتُ أنك أنت عروس خيالى ، مَن لبثتْ ضالةً فيه ردحاً من الزمن ، أو أنك بعبارة أخرى ظلها على هذه الأرض . فهتفتُ لفورى : وجدتُها ! وطفقت أعدو فى حدائق أحلامى جذلاً ، وأتنقل فيها من غصنٍ إلى غصنٍ كطائرٍ غَرِد ، باعثاً فى الأسحار من الأنغام ما شنَّف مسمعك ، فما لبثتِ أن أقبلتِ علىّ متلهفةً تركضين كما لو كنتُ أنا الآخر عريس خيالك الضال ، وللحال فتحتُ لك صدرى وتلقيتك ، ثم طرنا معاً مصفقين إلى حيث حططنا عند أيكةٍ مُورقة ، نقضى فى ظلها المديد أيام عمرنا فى غناء .

أيتها السمراء الجميلة ! يا من ضللتك زمناً فى حديقة الحياة كما تضلُّ الحمامة إلفها المنشود ! إنك لعروس خيالى ، ولقد خطبتُك .

فى الخميلة

وما أدرى ولا نحن ليلتئذ درينا ، إلى أى مكان كنا نقصد . ولكننى أذكر أننا طفقنا سائرين فى مسالك الحديقة ، وكانت الظلال الشاحبة تترامى من حولنا كالرؤى . لقد كنا كروحين هائمتين فى فردوس .

وكانت مباغتة مفرحة حين ألفينا نفسينا أمام خميلةٍ عرّش عليها الياسمين . ولا تسلنى عن جمال زهراته البيضاء وهى توشّى واجهاتها القاتمة ، كنجومٍ انتثرت فى دُجُنّة .

وحين صرنا منه ومنها عن كثب ، خفّ عطره يستقبلنا كما لو كان رب بيتٍ كريم ، وللحال ، خلته عَبَق حبيبتى .

لم يكن من الميسور أن أصدق أن شيئا يمتّ للجمال

سواها . فما أن رأيت ثَمَّ أريجاً يعطّر الليل ، حتى ظننتُني دفنتُ وجهي في شعرها الفاحم ، فشممت العطر الذي أعهد .

وأخيراً تبينت مبلغ خطئي ، فلقد كان عبَقها أبدع من ذلك بكثير . لقد كان عبق إنسانٍ جميل .

وفي مثل حذَر اللصوص ولجْنا الخيلة ، فحيتنا أفرعها المدلاة بأن لمستْ خدينا في أدب . وما أظن أنها قصدتْ بذلك إلى مغازلة حبيبتي ، وإلا لكنت ألقيت القفاز في وجهها .

وإنما زادني يقيناً ببراءتها ، أنها كانت باردة منعشةً كالنسيم وقتئذ ، وعهدي بالشفاه الغزِلة ملتهبة .

لم يكن هناك من عذولٍ إلا ضفدعةٌ صعلوكة . ولقد كانت على شيء من الذوق ، إذ ما كادت ترانا حتى اختبأتْ في دوالي لبلابةٍ استطالت فغرشَت الأديم .

على أنها كانت كلما سمعت صرير قبلة ، قفزت في نزق أضحكنا فأحدثت ضجة بالورق . وهذا هو كل ما استطاعت التعسة أن تفعل لتعلن احتجاجها . ليت كل عذولٍ يصبح ضفدعة !

أيتها الضفدعة إنّ خيبتك لم تُتَح لأحد . ولئن عجبتُ فلقلة عقلك . غير أني أحمد لك أن أضحكتِنا ، فمنحتِني الفرصة كي أسمع حبيبتي تضحك . إن لها لضحكة كرنين أجراسٍ فضية . وتلك بدعة لا عهد لك بها طبعاً في نقيقك . وهذا على ما أظن ، ما حدا بك إلى أن تذهلي وقتئذ عن نفسك ، فتمعني في النط معربدة كسكير .

وأخيراً لقد كان بالخميلة جذع مقضوب فجلسنا عليه جنباً إلى جنب . كان ذراعها البضّ يلامس جسدي المرهف ، فما يلبث أن يوقد ناره . وكنت كلما مسّت أنفاسُها الحارة خدّي ، خُيِّل لي أن لهباً قد تمشّى في عروقي ، وأضلعي أضاء .

وقطعنا السكون بأغنيةٍ غنّتها الجميلة . كان صوتها كأنين الناى فى بحّته ، ولكم أبكى ليلتئذ قلبى الجريح .

وما أن أتت على آخر النغم ، حتى كنا نبكى معا . لقد أثار صوتُها الحنون كوامن الشجن ، فاستحالت أشواقنا ذوباً من دموع .

وعُدنا إلى الصمت فكان أبلغ . لقد تحدثتْ العيونُ حينذاك فأبدعَت . وأبدعُ منها كان حين أمرَت الشفاهَ فأطاعت .

لا تسَلْ عن رحيقٍ أسكرَنى ، ولكنْ سَلْ إنْ أردتَ كيف سكرْت . لكأن عصا ساحرٍ مسّتنى فأطارت من عقلى الصواب .

وإذْ تَراختْ للهوى جوارحى ، هتفتُ لفورى فى وجْدٍ : ملاكى ! وركعتُ عند قدمين بدا كعباهما من فوق الحذاء ناضجين كشِقّىْ مشمشة . ثم التفتُّ فتأملتُ ساقين كقضيبين من شُكْلاتٍ مُزجتْ

باللبن . وانثنيتُ فلثمتُ وأنا فى خشوع العابد كفًّا ناعمة .

وربَّتتْ علىّ حبيبتى مشفقةً ، وتوسلتْ إلىّ أن أنهض فنهضْت . وعندما حانت منى إلى وجهها نظرة ، ألفيتُها خجلةً من فرْط وجدى . لقد خَدش حياءها الرقيق ، أنْ ذَلّ لحسنها إنسان .

مصير القلب

أنتِ وإن كنتِ عروس خيالى ، غير أنك جئتِ بعد فوات الأوان . الآن فقط ، وبعد أول لقاءٍ اعتنقنا عليه ، عرفتُ ذلك ، وأن أشواقى كانت من الزيْف بحيث فنيتْ على قبلة .

لا أمل اليوم فى أن أنفتح لحبٍّ جديد . إن قلبى ، قد دفنتُه مع أول زهرة . وللزهور البواقى ، مابقىَ لِى من نورٍ بالعين يبصر .

أعيريني أيتها الزهرة الجديدة سمعك . لقد أخطأتُ فهم نفسي حين ظننتُني الأمس أحببتك . إنها خدعتْني يومئذ . أشكل عليّ ما أصبحتُ فيه ، بالذي مرّ من أمري . فحسبتُ القلبَ الذي دأبَ على الخفق من يومه ، لم يزل ريّانَ يخفق . وظننتُ الشوق أبديًّا كيهدى به ، فأذا هو جذوةٌ بالعين وانطفأت .

لقد تحققتُ ذلك ، عندما لمستُ أوتار قلبي فلم تُنغِّم ، وأرسلتْ فيحاً كوحوحة مذبوح . هنالك فقط ، أدركتُ يا زهرتي التعسة ، مبلغ محنتي ومحنتك .

تعالَيْ إن شئتِ أدلك إلى حين ، ثم ألقي بك على قارعة الطريق . إن عيني لملول ، وليستْ كقلبي دائبة الشوق . ومايعنيني أن يلتقطك بعدي أول عابر سبيل ، مادام ثمةَ زهراتٌ أخرَ تنتظرني .

لا تعجبي ، فمن لا يحب زهرةً بذاتها ، تروقه الزهور كلها . قديماً قد أحبَّ القلبُ منّي زنبقة ،

غير أنه شيّعها ذات ليلةٍ ولم يعُد . لا تذكّريني بحديث القلب فحديث القلب عفا . إن في نبش ما فات لَما يثير الشجن .

تعالَيْ ولا تعيدي إليّ ذكرى أختك عفا الله عنها . لقد كانت حسناءَ رائعةً مثلك . كانت زنبقةً يا مَن أنتِ تُدعيْن بنفسجة . وكان بيننا حبٌّ كان من القلب في حبّته . وكنت أوافيها كلما همّ بيَ الشوق فأُسمعها من أغاريدي ما كانت ترتجف طرباً له . وكانت سرحتُها الزكيةُ ملتقانا ، وموعدنا الليالي المقمرة .

ولا تسأليني كم غنينا ، فحديث ذلك ينوء القلب به . ولكنّ الله شاء أن يضع يوماً ما حدّاً لأغانينا . لقد غافلتْني ذات ليلة وراحت تستمع لطائر جديد ، وكان وا أسفَا غرابا . كذلك أنتن أيتها الزهراتُ الخاتلة . يا مَن أُمكنّ الزهرة العريقة في الأثم حوّاء .

وإنْ هو إلا نعيق ليلة ، حتى تبرمتْ أختُك بخلِّها الجديد ، وعادت التعسة تحنُّ إلى تغريدى . ولكنْ عبثاً طال بها ارتقاب النغم . إن القلب الذى عهدتْه غرِّيداً ، كانت قد تقطعتْ أوتاره . لقد جرحتْه الأثيمةُ ، وكان جرحاً غير ذى اندمال . هيهات أن يغنِّى على محنته غرِّيد ! لقد قُضِىَ الأمر يومئذ وقبع البلبل كسيفاً فى وكره .

لا تبكى كثيرا على كُربتى ، فلقد انتقمتُ فأحسنتُ الانتقام . نعم ، لقد أذقتُها من الكأس الذى جرَّعتْنيه ، وجرحتُها أنا الآخر جرحاً لا يشفَى .

اذهبى إليها الآن تجديها مائلةً على عنقها من حسرة . كمْ هبتْ عليها ريحٌ صَرْصَرٌ فقصفتْ عُودها اللَّدن . ولقد أذبلها فرطُ الضنى فزهدتْ فيها الطيور الأُخَر . حتى الغراب الذى تنكَّرتْ له ، أجفل منها . بل إن اليوم الذى كانت تدير

وجهها منه ، أمسى يمرُّ بها فلا يعيرها التفاتة . كان هجرى قاسياً فخلّفها فى حالٍ لا تُحسد عليه . غدرُه بغدرٍ والبادىء أظلم .

وهكذا المسكينة على نفسها جنت . لقد ضيعت القلبَ الذى خفق لها فحسْنَها يتمت . وظنّت أنها تدفن قلبى وحده ، فقلبها بجواره دفنت . ألا يرحم الله كلينا قتيلين كنا أو قاتلين .

اذهبى أيتها الزهرة وعودى إلىّ ومعك سائر الزهراتِ من أخواتك ، وبناتِ أمك حوّاءَ زهرةِ آدم . ائتينى جميعاً فى شكل طاقةٍ ذات ألوان مختلفاتٍ وبهرج . وانتثرنَ حولى زهراتٍ يكسفُ الشمسَ نورُها ، ثم أجلسنى بينكنّ ودعنى أتأملك فى زهوٍ وخُيلاء . إن لى وإن ضيعتُ الفؤاد ، لعينين تبصران وأنفاً لم يزل .

أيتها الوردُ المنتصبات ضحكا ! أيتها البنفسجاتُ

المطأطئاتُ حزْنا ! أيتها القَرَنْفُلاتُ المطلة من كئوسك ! أيتها النرجساتُ يا مرسِلةَ السُّبا من عيونك ! وأنت يا زهرات الفل المدلّلة . ويا زهرات الياسمين الصبوحة ! ثم أنت يا زهور البنْسيه الصلفة ! ويا زهور المنثور الفخمة . وأخيراً يا أزهار البِرْكة المتأنقة ! ويا أزهار الأنْثَرِينا المتألقة ! تعالىْ ، تعالىْ أقبّلكنّ جميعاً وأمضى .

تعالىْ أقبّلكنّ قبلةً خاطفة ، تمرُّ على الشفاه مَرّ النَّسْم ، وما لها إلى موطن القلب من سبيل .

الانتقام

عجباً لكنّ أيتها الزهرات تهافتْنَ علىّ رغم تحذيرى . وأعجب منه أن إعراضى يزيدكنّ فىّ رغبة . بل يقينى أن إعراضى وحده هو الذى رغّبكن فىّ . ما أنا شىء يذكر إلا بإعراضى هذا . كأنكنّ على الذل

جُبلتنّ فما ترغبنَ إلا فيمن عنكن يرغب .

يميناً بالله لولا أنى بنواياى عليم ، لاتهمتُنى بأنى أتكلف الصد لأجتذبكنّ . ولكنْ شهد الله إنى فيكن أزهد . لولا بقيةٌ من شغفٍ قديم لم يزل يعاود القلبَ بين حين وحين . ورغبةٌ فى الثأر تعمانى من صميم الفؤاد بكن أرحّب .

أيتها الزهراتُ يا ملحّاتٍ فى غير مبرر ، يا راغباتٍ فيما لا يستحق ، ماذا وحقكنّ تُردْن ؟ إن قلبى ، قلتُ إننى دفنتُه . والضلوع التى كانت مأواه ، أضحت الآن كبيتٍ خَرِب . الطائر الغريد هجرها ولقىَ حتفه . وما يَنبس اليوم فيها ، سوى صمتٍ على الوهم ينادِى ، وريحٍ بصفيرها تجيب .

علامَ التهافت إذَن ، وماذا من ورائه نجْنين أوأجنى أنا ؟ عجباً ، يَرقصْنَ طرباً لصدّى ! إنى والله لأضحك من ضِعَتكنّ . ماذا بركنّ ؟ إن تحذيرى

ليس يثنيكنّ ؟ حسنا ، وهذا هو سبب العجب .
يا أعجب مَن عجبتُ لخسة طبعه !

دونكن أنا إذَن وتعاليْن . ذلك على أى الأحوال ما كنت أتوقع . إنى لأعلم عن طبائعكنّ ما لا تعلمْن . إنكن لتضقْن بالإكرام ذرعاً إنْ أنا حدثتنى نفسى به . فى وسعى أن أغيظكنّ بأن أكرمكن ، لولا أننى أخيء لكنّ ما هو أنكى .

تعاليْنَ تعاليْنَ أسومكنّ العذاب الذى قدِمْتنّ من أجله . إنكن لفَراشاتٌ عابداتٌ للظّلى عن كثب . أبداً تجْدِدْنَ فى أثر مصباحٍ يحرقكنّ . كأنكن مخلوقاتٌ للفناء حتى تسرْن اليه بأقدامكنّ . إنْ أنتن إلا أنوارٌ للنار خُلقَت . أمُّكنّ النارُ التى أرسلتكنّ نوراً ، ثم هى قبركنّ .

ولمولعاتٌ أنتن بالفناء حتى لتخلقْنهُ إنْ لم تجدْنه . فى طبائعكنّ القسوةُ التى تهد لكنّ سبيله .

تعلّمنَها الرجالَ لتَعُدْنَ فتَلقيْنَ على أيديهم حتفكنّ . إن مِن غدْركنّ لَهذه النار التي تكوينا والتي بَعدُ نصليكنّ .

إنني أنا المصباح مَن على أشْرَةِ اللهب انطويتُ فتعالينْ إذَن . إنه لَمِنْ نار ثأرٍ وحُبٍّ قديم ما لهي يتّقد . تعاليْنَ إذَن حُمْنَ حوله جذِلاتٍ واحترِقْن . إني لَيلذ لِي أن أرقب أجسادكن الرقيقة وهي بالنار تحترق ، كما يلذ لكنّ أن تتأوهن على حرّها أو أشَد . أمسِ شهدتُ مصرع قلبي عند شمعة ، واليوم أشهد مصرعكنّ على لهب مصباحي .

إنه لَمِنْ بِرِّ المرء بقلبه أن ينتقم له . قديماً صرعتْه منكن فرَاشة ، وللقصاص اليوم سربٌ منكن يُسْلِم نفسه . حسَناً فعلتنّ وتفعلنَ فلَلإبادة أنتنّ حَرِيّات .

لا تَعجبْنَ لقسوتي فلقد علّمتْنيها قديماً أختٌ

لكنّ . إنما لتُهْجَبْنَ بها فهى كالمهد بغيتكنّ .
سأذيقكنّ الهولَ الذى تستغثنَ منه وتأبيْنَ الهرب .
ولست بمترفقٍ أبداً ، لا رحمةً بكن من رفقٍ تعدُنه
عليكن نكبة ، وإنما لأنى أُبيِّت لكنّ مصيراً الموتُ
أقلُّه . وما أنا بمطيلٍ تعذيبكن الذى تشتهين ، لأننى
حتماً صارعُكن من أول لمسة . إن نارى لحامية
كجرحى ، وما أظن أنكن تحتملنَ لظاها .

ها أنتُن ذى تتهافتْن علىّ كأنما لوعيدى إغراءُ
وعْدى . مسكيناتٍ ، غداً لا تعود ترفُّ فيكن تلك
الأجنحة اللمّاحة ! غداً نبْصركنّ كومةً تحت المصباح
الأليق . أنتن يا مَن كنتن تملأْن الروض بهجة .
أنتن يا من أحرق القلبَ منى نورُكن فأغرانى بإحراقه .

تعاليْن إذَن زرافاتٍ وبنارى احترِقْن . إن ذبالة
مصباحى لتخفق تحرشاً بكنّ . تعاليْن وبحق العدالة
لا تحفِظنَ علىّ . إن النار التى اليوم ستأكلكنّ ، آكلةٌ

أيضاً غداً نفسها . محالٌ أن يصمد للبقاء جسمٌ أضحى من لهب . مصيري ومصيرك واحد ، وإن الفناء لَفي غدٍ جامعُنا معا . حين نُطوَى فلا مسيءٌ يسوم ضحاياه العذاب ، ولا بريءٌ يطلب الرفق ويتوسل . ثم نُبعث فأذا الكلُّ وجِلٌ مما اقترف ، وعفا الله يومئذ عن أختكن وعني .

الصفح

إني وربِّي أنا الذي دأبتُ على أن أعذبك مِن قَدَم ، قد سئمتُ اليوم أيتها الفراشاتُ تعذيبك . كلما ألفيتُ جثتك في الصباح صريعةً تحت مصباحي ، لا ألبث أن أتعذب أنا .

لسوف أحجِب عنك نوري منذ الليلة . ولكِ بَعدُ أن تحترقي شوقاً إليه ، إذا لم يكن لك من الفناء بد . إنما المهم ، أن لا أشهد بعيني مصرعك .

مسكينةٌ أنتِ أيتها الضحايا البريئة ! تالله لقد رقّ قلبي لك . ماذا عليّ إذَن لو أنا أطفأتُ مصباحي كليةً وأرحتك ؟ إنك عندئذ ناسيةٌ كل ما كان من نوره ، فلا الجسد منك بَعدُ محترقٌ به ، ولا القلب من شوقٍ إليه هو الآخر يتعذب .

إنه لَمِنْ حق الجمال علينا أن نترك أجسامك اللّدنة تعيش . وإنّ الصفح لَجميل ، ولقد صفحت .

وعلم الله ما جنيتِ من ذنبٍ أهبك المغفرة من أجله . ولكنه الغضب أعماني يومئذ فأخذتُك بجريرة غيرك . ويلٌ لِي من ظالمٍ كنت ! إن الانتقام لَأحمق . وإن الندم لَمرير .

اصفحي أنت عني فلقد أفقدتْني إساءةُ أختك عفا الله عنها الصواب ، وخلّفتْني أهوجَ كوحشٍ جريح ليس يدري أين ينشب مخالبه . أستحلفك اللهَ إلاّ سامحْتِني ، ولا تضيفي إليّ بنقمتك جرحاً جديدا .

واذكرى أننى فى ذمة الفناء أصبحتُ أو أكاد ، وقديماً غفر الأحياءُ إساءات الموتى .

اليوم أطفىء مصباحى ويَخمد منّى النورُ الذى كان سَطع ، فطِيبى أيتها الفرَاشاتُ نفساً من بَعد طول عذابٍ واهجعى .

حبذا الظلْمةُ ترخِى الستارَ على رؤًى تُعاود القلبَ جريحة . فيا نفْسُ اسدلى الظلام على أوجاعك ، وفى غمْرته انسىْ وابرئى . فمن الخير للعين التى لا تبصر ما تود ، أن لا تبصر مطلقا .

والوداعُ فأننى إلى الكهف ذاهبةٌ أتعبّد . وهناك حيث الظلامُ رفيق ، سأتخذ من يده بلسماً لجِراحى ، وبتُقاهُ من الأوشاب نفسى أطهِّر . وعندئذ أعيش بقية العمر والنفسُ منى مطمئنة ، ثم أقضِى وفى فؤادى خشيةٌ من ربّى .

موت الزنبقة

لِمَ متِّ فى البِدار يا زنبقتى ؟ إن فجرك لم يَحِنْ بَعدُ ليلُه . وشذاك كان حتى الأمس يعطِّر الرياضَ ، علِم الله ما عفا ولا وَهَن ؟

أفيما بين يومٍ وليلةٍ تُغْمضينَ ، فلا العينان منك تُشعّان الضياءَ ، ولا الثغر ملتمعٌ إذا ما ابتسم ؟ ويدهمك هكذا الردَى الجبارُ فيجردك من الناعم النضيرِ من إهابك ، ويُلبسك عوضاً عنه ثوبَ البِلَى ، غيرَ وجِلٍ من ظُبا لك بالعينين كم قديماً أرْدَتْ من قتيلٍ ، ولا مستجيبٍ شفاعةً لِصِباً منك راح يتوسل ؟

أجيبي يا زنبقتى الحبيبة ! تكلمى واشكى لِى ما فعل الردى العشيةَ بك . اشكى لِى كما كنتِ فيما مضى تفعلين ، كلما قستْ عليك الليالى فلجأتِ إلى صدرى

الحنون تبثينه همومك ، وتبللين بالدمع السخيّ خدى وخدك ، أنت يا من لم يكن أبْدعُ منك حين يخامر الأسى قسماتك ، ويحلّيها بالملول العذب من سحْره .

شريداً والله أصبحتُ بَعدك . وحيداً وإنْ اكتظتْ حولىَ الزهور بدونك ! يا أول زهرةٍ غرّد لها القلبُ ، وأول عَبَقٍ شممتُ ، يا زنبقتى أنت ! يا رفيقة الصبا القديمِ ، يا عريقةً أنتِ على القلب كالماضى العريق ! يا من إنْ خطرتِ فلمَواطن الذكريات روحى تعود ، وبالدموع الغوالى عينِى تجود ! حين كنا فى المهد كمّين فتفتحنا معاً ، وتكحلتْ بالنور أعيننا معا . ثم معاً بفتنته ناشئين أُخذْنا ، وعلى سناهُ نشوانيْن رقصْنا .

أنتِ يا من لك بأجمل أوقاتى أدينُ ، وعلى طيفك بالأعزّ منها أجتمع ! يا غصن ذكرياتى الملوّح لِى من حديقة الأبد ، ومَن عليه أيامى الخوالى تلتقى وتغرّد ! يا جوهرةً كم غَلَتْ عندى بالذى سكبتُ بين يديها من دموعٍ ، وأودعتُ لديها مِن جوًى مِن عصارة

القلب استُلَّ وصبابة ! لمَ رحلتِ آخذةً أيامنا الندية في ركابك ، وتركتني للّيالي السود أبكيك وحدي فيها وأنتحب ؟

ألا يا قلبُ احزنْ وارتدِ السواد على حبيبة صباكَ ، وأنتِ يا عينُ ابكي أسىً وتقرّحي . إبكيها ثم انظري حولك الظلام بعدها وابكي على نورك . وابكي ماضياً أندى من ليالي الربيع كانَ ، ووداداً كان أعطر من ريح الصّبا وأرقّْ . بل ابكي دنيا بأسرها غرّدتْ فيها قديماً بلابلُه ، ونفحتْ جوّها أزهارُ ذواتُ أليقٍ وعبق .

أحقًّا أن عهودنا قد انقضت اليوم مع الليل حين أسلمتِ يا مهجتي الروحَ ، فأذا ما أنا غداً ذكرتها أو ذكرها القومُ قالوا وقلتُ رحمها اللهُ وأكرم مثواها مع الثاوين ؟

أحقًّا أن أيام الهوى والصفاء تولّت ، فما عادت

تشهد الخمائلُ لنا لقاءً ، ولا النيلُ زورقَنا يحيِّي كلما شقَّ فى الليالى عبابَه ؟ وعفوًا فما النسيمُ عاد مرجِّعًا عنا قبلةً ، ولا لنا السكونُ مردِّدًا فى غدٍ أنَّةً ؟ أحقًّا أن صفحة حبنا قد طُويتْ ، فلا وعدَ حلوًا اليوم من فمكِ ، ولا موعداً أخِفُّ إليه فرحاً للقائك ؟

وحتى ليالى العتاب تقضَّت ، فما عدتِ بَعدُ لأمتى على نوًى أزمعتُ ، ولا على جفوةٍ منك عدتُ ألومك ؟ وانقضى كل شىءٍ فلا إساءةَ اليوم ولا مسىءٌ ، ولا فؤادٌ بَعدُ على حقده منطوٍ ، وثَمَّ مهجةٌ تقف ببابه تطلب الصفح ؟

يميناً بالله إننى لأحنُّ إلى أيام هجرك ، بعد أن ذقتُ من موتك ما هو أقسى وأمرّ . وكأن هذه الأيام على ما ذقتُ فيها من ضنى ، أحلَى عبيراً من الزهر ، وأندَى من النسيم إذا رقّ .

يا زهرةً ضجيعةَ الثرَى والظلام باتت ، يا هامدةً

أنتِ من بَعد عنفوانٍ وضجة ، فِدى نومِك الفؤادُ الذى جَرحْتِ قديماً ، والذى اليوم يذوب عليك ويتقطع . ليتك الآن تقومين ولو لتكتبي على جبينى إساءةً بيمينك ! مَن لِى بنسمةٍ واحدة من أنفاسك تتردد ، يا حبيبتى ولو لتلفظ حتفى . إن يوماً واحداً من أيامك الغالية يعود ، ليساوى من عمرى ما انقضَى منه وما سيُقدَّر .

ولكنْ هيهات هيهات ما فات يرجع ! لقد مضتْ أيامنا وذهبتْ إلى حيث لا أوْبةَ تُرجَى . فلْيُغلَق اليومَ الفؤادُ على حسرته ، وعلى نارها الجوانحُ فلْتنطوِ . ورحِم الله زماناً كنتِ فيه يا حبيبتى زهرته الأَلِقة ، وكنتُ أنا بلبله الغَرِد . يومَ بحْنا بالهوى فأضَعْنا فى الرياض شذاه ، وغنَّينا فردَّدتْ شدوَنا بلابله .

وسلامٌ علينا يوم سرْنا فرمقتْنا من المُعجَبين عيون ، وذُكرْنا فملأنا الأسماع بذكرنا .

بيني وبين الزنبقة

الآن وقد طواك يا زنبقتي الردى، فما عاد يجد الحاسدون فيك ما تغبطين عليه. الآن وقد رقدتِ هامدةً فما أصبح لك بدفع حنْق الحانقين قِبَل. الآن وقد طهّر جدثَك الموتُ نخلا من كل نيةِ سوءٍ أو شائبة غرض. الآن وقد حلّق فوقك العجزُ فصرتِ بالرحمة والصفح الجميل حقيقة، فالله أُشهِد على أنني محوت من صفحة الفؤاد إساءتك، فعدتِ فيه تلك البريئةَ التي رأتها العينُ قِدْماً أول مرة، حين كنتِ كما غدوتِ بموتكِ الآن البَتُولَ التي ما تفتأ القدسيةُ ترفرف حولك، وتباركك الملائكة رائحةً غادية.

إنّ الموت لَغفّار الذنوب، ولقد غفرتُ لك مخلصاً وعنك عفوت. كفَى الموتى بما صاروا إليه محنةً تستدرُّ عطف العدو بَلْهَ الحبيب. ما مِن بَعد

الردى بقيةٌ للوصمة لاسمٍ أو شماتة مخذول ، ولبئس الفؤادُ ما راح يحمل الحقد لإنسانٍ في ذمة الموت أصبح .

أوهكذا نحن البشرُ لا نعفو إلا أن يتكفل القدر بثأرنا ، ويبطش بالذى كنا نجدُ عليه ونحفظ ؟ يا ما أقساها قلوباً تلك التى بين جنوبنا نحمل ، وأبعدها عن الصفح كرماً والمغفرة !

يميناً بالله يا زنبقتى ، لأنت فى نظرى الآن أطهر من قديسة . ماذا أقول ؟ إن أىَّ ميتٍ أطهر من أى حى . بهذا قضى الله أن يفضّل على الأحياء الموتى . لقد طهّرك الموتُ الذى أعجزك . وماذا من بعد عجز المرء واقٍ له من ذنوبٍ تثقله ؟

ما أشد لوعتى كلما تذكرتُ أننى هجرتك ، وظللت أناصبك الجفاء حتى ساعاتك الأخيرة ، فقضيتِ وفى فؤادك من نأيى حسرة ! آه ! يا ليتنى علمتُ أنك

كنتِ ضيفةً عما قليلٍ تشدّين إلى دار النوى رحالك ؟ إذَن لكنتُ أبقيتُ على ما بيننا من ودٍّ موشكٍ مع الأيام أن يَرتحل ، ولَمَا فجعتُك فى القليل الذى بقىَ لك يومئذ من دنياك ، وحمّلتُ قلبك عبءَ الملام للشخص الذى وضعتِ أملك فيه فخيّب ظنك .

متى يا إلهى نفهم أن أيام الحياة القصيرة لا تتسع لخصامٍ أو غضب ؟ وأننا جميعاً زهورٌ مع الفجر أو مع المساء ذاوية ، فلا أقلّ من أن نُحسن لقاء بعضنا البعض فى ديارٍ نحن عنها راحلون ، حتى إذا ما يومُنا الموعود حان ، ذهبْنا راضين مرضيًّا عنا ، ما فى قلوبنا حسرةٌ من أحد ولا على أحد ؟ أوَما بهذا يقضِى البرُّ والكرم ، بنا وعلينا نحن الزهور الفانية ؟

وانقسمتى على نفسى كلما مر بخلدى أننى أسأت إلى إنسانةٍ كان طائر الموت فوق رأسها يحلّق ، فتعاونتُ والردى عليها وأتلفتُ فى يدها من أيامها ما بقِى !

تبًّا للغضب ! ذلك الأحمق الذى يُركِبنا مراكب الشطط ، فما نتورع ونحن فى عماه ، عن أن ننقضّ فى وحشيةٍ على أخٍ لنا مكبّةٍ شفتاهُ على كأسٍ قد اشتهت شرابَها نفسُه التوّاقة ، فننتزعها من فمه ، ثم ما يلبث بعدئذ أن يباغته الموتُ فيقضِى ظامئاً إلى الكأس التى كانت فى يده .

مسكينةٌ أنت يا زنبقتى ! لمْ أتركك فرحةً بنفسك . لمْ أدعْك لأيامك على قصرِها . وصوّبتُ إليك عينَ حقدٍ فقصفتْ عودك . كأنى لم أكتفِ يومئذ بالموت الذى كان يتربص بك فتحالفتُ عليك معه . قوّتانِ قوةٌ من حقدٍ مُستَلٍّ ، وقوةٌ من موتٍ حاصد ، يجتمعان على زنبقة ، وفى نضارة العمر كانت ! علامَ يا ربُّ كان كل هذا ؟ لمَ لمْ نوفرْ على نفسنا ما تجشمتْ ، ونوحِى يومئذ إلى النسيم أن اشتدّ ، فما هى إلا لحظةٌ حتى تذهبَ أدراجه . أوَظننّا أنما الزهرُ يحتاج إلى كل هذا العناء كيما نُلقّيه حتفه ؟

قبحا للحسد ! قبحاً للغيرة الحمقاء التى جلبت الكدر على إنسانٍ كيفما أخطأ فهو معذور ! إنْ تلكُ تقع على الموت يا زنبقتى تبعة إنهاء أيامك ، فعلىّ أنا تقع تبعة تعكير القليل الذى كان ما يزال بين يديك منها . والموت حقٌّ يُقتضَى فما عليه إن زار حرَج ، وإنما الحرج على أولئك الآثمين ممن يفوّتون على سواهم فرص العيش التى تتاح قبله .

فاجأتُك يا حبيبتى والكأسُ فى يدك ، فأرقتُها وقلبتُ ما ارتشفتِ من شرابها المعسول غصةً فى فمك ، فلبثتِ تنظرين إلىّ وإلى الكأس نظرةَ آسفٍ كسيرٍ فؤادُه ، ثم حدجْتِنى بنظرة عتابٍ ومضيتِ تزدردين فى صمتٍ غصتك . كأنه لم يكن يكفيك ما أريق من شرابك ، فكان عليك أيضاً أن لا تهنئى بما شربْت . يا لمنظرك المؤلم كان ! منظرٌ مرّ بى يومئذ مرّ الكرام ، ولكنْ علِم الله كم يفتُّ الآن فى كبدى !

ما أفظع الأثم الذى يلوثك الآن يا يدى ! يا لعذاب الضمير إذا ما قُضىَ الأمر وسقطتْ مضرّجةً بدمائها الضحية ! إن أيدينا عندئذ لأول ما بالدم يتلوث . وإنه لتلوّثٌ واأسفا يعجز الدهر عن محوه. نعيش قدْرَ ما نعيش به ، ثم نحمله معنا إلى قبرنا .

آه لو علِم الظالمون لِمَنْ أعدّوا ظلْمهم ! إن عدْواننا لسرعان ما ينقلب علينا . وكأنما للبطش بنا ، كان ما أعددنا . كل مذنبٍ بما جنَت يداه مأخوذ . إن لم يكن بيد القدَر فبيد ضميره . إن قاضيَنا لكامنٌ فينا . وإن الأحشاء منا لمقرُّه . نحن نسيء والمَرْجِعُ بَعدُ إليه . يقْدر حيث يعجز الكل . ويقتصُّ فيُحسن القصاص .

اغفرى لِى يا زنبقتى إساءتى . أو انقمى علىّ فذلك أدنَى للتكفير عن جرمى . إن العذاب ليبخّر بناره الذنوب ، ويردُّ بوتقة القلب طاهرةً نقية .

وسلامٌ على روحك الطاهرة. سلامٌ على جثمانك المعذَّب فى أتون ظمئه. ثم سلامٌ على أيامنا. رحم الله زماننا!

العليـــل

لك الله يا قلب! لقد تكالبتْ عليك النوائب فما أعطتك الفرصة كى تلتقط أنفاسك. أمسِ خرَّ حبيبك صريع القضاء، ومن قبْلُ أبوك الموتُ طواه، واليوم شقيقٌ لك يرقد مثْخناً بجِراحه، ما سوى عالِم الغيب يدرى ما إذا كان لبرئه منها من سبيل.

وهكذا قضَى الله أن تهجر الكرى عيناك، وتقْضى لياليك جاثياً عند فِراشه، تحنو عليه كما تحنو الأم على مهد طفلها الحبيب، وكم فى بعض الحنان يا قلبُ من ضنًى ومشقة.

لهفى عليك تَلمس جرْح حبيبك ولا تستطيع أن

تضمده ، وتستمع لأناته فما تملك أن تخفف بلواه . فأذا ما يئست وأخذتك الشفقة على رفيق صباك ، لجأت إلى الله ربك ، رافعاً إليه يديك فى ضراعة ، متمتماً بالدعاء كقائم لصلاة .

ما أشد غدر الزمان ذلك القلب ! أوهكذا يا شقيق يهدم المرض فى لحظة قواك ، فأذا بلونك من بعد نضرة يحول ، وعينيك من بعد تألق تخبوان ؟ ويقعدك العجز فتتعاقب عليك الليالى وأنت راقد طريح فراشك ، ما تستطيع له مبارحة أو تقلباً فيه من جنب إلى جنب ؟ وتنفض هكذا من كل شىء يديك ، فتعف عن الطعام إن هم إليك قدموه ، وتشتهى الوسن فيأبى أن يزور جفونك ؟

حتى إذا أضناك السأم يا من روحى فداك ، وطفرت العبرات حيرى على مقلتيك ، أشرفت نظراتك الحزينة منها على ذكرياتك ، ورأيت نفسك فى ماضيك

متألق القسمات كزهرة ، باسم الثغر كالصبح المضيء ، فما تلبث أن تأخذك الحسرة على شبابك ، فأذا الدموعُ التي كانت حيرى تنهمر ، وإذا القلب الذي كان صابراً يتململ ، ثم إذا بك في مثل عجْز الغريق تجاهد ، فترفع منك إلى السماء يديْن نحيلتين ، كأنما لتشكو إلى الله ما فعَل بك السقَم ، وتسأله تعالى الشفاء أو الموت إنْ البرءُ عزّ .

برغم قلبي علِم الله يا شقيق رقدْتُك هذه ودموعُك . أنت يا مَن ودّت العيْنُ أن تتخلّى عن نورها ، في سبيل أن تراك معافىً مثلما كنت ، تروح بيننا وتجيء ، وتملأ الدنيا التي أظلمتْ بَعدك حبوراً وبهجة .

ولكنْ ، آه ! أترى يتم لكِ يا عينُ ما تشتهين ؟ لا أكاد وا أسفا أصدّق . إن شيئاً في أعماق الضمير بالسوء يتحدث . ويحكما يا شفتيّ ! لمَ بالسر تجهران ؟

ما مِن المروءة يا فمُ أن تَنهى حبيبك. قُطِّعَ لسانٌ يا شقيق بغير خيرٍ يذْكرك. فيا فمُ إذَن تورَّعْ وانطبِق. وأنت يا قلبُ حاذرْ أن تَلمس سِرَّك. واهربْ منه وإياك أن يتبعك.

تحاشَهُ تحاشَهُ وإن كان من العبث أن تحاول. إنى لَأعلم أنه يلاحقك ويرغمك على أن تَسمع له. وإنْ أنت أجفلتَ أمسَكك بتلابيبك. وإن أنت سدَدت أذنيك نَحَّى أصابعك. إنه لَبالمرصاد لك واقف. أيَّان سرْتَ فهو فى أثرك. وإما خطوتَ خَطا معك. إنه يا قلبُ فيك مقيم. وفى أطوائك متغلغل. مسكينٌ لقد استوطنك الداءُ الذى سيصرعك. وإنّ شرَّ الأدواء لَوهمٌ يَقتل. يوسوس منذراً بالسوء فيقيمنا ويُقعدنا فيه.

ماذا بربك إذَن تستطيع أن تفعل؟ صلِّ! صلِّ إلى الله ما غير هذا أمامك. وإليه اضرعْ أن يكذِّب

ظنك . وإليه اضرعْ أن يمنح العافية مريضك . إن الله لَكريم . ولقد يتقبل منك فيمنُّ عليك بما لستَ تتوقع . إنه تعالى لَبيده الأمر . ولقد يشاء فيبْرم المعجزات .

رؤيـــا

أمِنْ بَعد ما كانت تصدح البلابل فيك يا قلبُ ، غدوتَ وما يفتأ البومُ يمرح رائحاً غادياً بين شِغافك ، مرجِّعاً فى ساحته الخربة نعيبه المروِّع ؟

وأدركتْك الحيرةُ من أمرك ، فلا أنت تقْدر على الصحو فتخلو إلى وساوسك تُسمعك ما تنقبض لهوله ، وإن أنت نمْت رأيت فى رؤاك ما هو أفظع ؟

مسكينٌ ، كل ما بات حولك اليوم بالسوء يُنذِر . فلا السهرُ على ضناه نافعُكَ ، ولا الرقاد مع داثك يجدى .

ما أشأمها إغفاءةً يا شقيق ، تلك التى رأيتُ فيها الرجال ذوى الهيأة المنكرة يحملونك مسجًّى ، وعلى وجهك من سيماء الرحيل سحابة ، كى ينزلوا بك إلى حفرةٍ فى باطن الأرض نُقِبَتْ ، وكلما هبطوا بك الدرَج الهوينا ، ضَرب عليكم الظلامُ المخيف سجافَه ، حتى إذا بلغتم القاع من أسفل الدرك ، بدوتَ وبدوْا كأشباحٍ فى الخيال تتحرك ، وبين أذرعهم وجهُك المضيمُ تلُوح كبصيصٍ من ذبالةٍ خابيةٍ صفرتُه ، مستسلمٌ راحَ لمن بأيديهم باتت مقاليده ، يميلونه حيث شاءوا فيميل وحيث شاءوا يرفعونه فيرتفع ، أبداً مذعنٌ فما اعترض مرةً أو قاوَم ، كأنْ لا إرادةَ أضمتْ تعيش فيه ، ولا شأنَ له بأمر نفسه أصبَح ، ويظل هكذا ما بين لائحٍ تارةً ومشيح ، إلى أن يستقر فى بقعةٍ استقرارةَ الأبد ، ثم يصعد القوم تباعاً وينزل الستار عليك فتختفى .

رباهُ يا أخى ! ماذا كانوا يفعلون بك ؟ أولئك

النكرات الغلاظ القلوب . لأقسم بالذى أجرى دموعى عندئذ ، ما جفّ لى فى منامى دمع طيلة الوقت الذى كان يسير فيه إلى الردى موكبك . وأننى عفّرت وجهى كمداً فى التراب حين ألفيت مشيّعيك يعودون من دونك ، ورأيتك وقد ارتضيت المُقام فى الحفرة التى أعدّوا لك .

ويلاه ! من يصدّق أننى سأجرؤ على الرقاد منذ الليلة ، وأرخى جفونى للرؤى المفزعة تخلو بها وتستبد ؟ فليحرّم النوم على جفنى إذن ، وكفانى عذاب شبح ما رأيت وما يريد أن يبرح ذهنى . وكفانى أيضاً بوم ما ينفك فى أذنىّ ينعب ، منذر بالخراب والهول نعيبه .

التنبـــوء

تالله يا شقيقي ما كنتَ تعرف ، حين تمتمتَ الآن تسألني ، وأنت بين اليقظة والغيبوبة تترجح ، متى إلى منزلك الجديد سينقلونك ؟

أيّ منزلٍ بربك تعني ؟ تلك الرموز لمَنْ لغة الروح هي . ولا ريب أن روحك هي التي كانت تحدّثني .

ما أحسب إلا أن مغاليق الأبد قد تفتحت اليوم لاستقبالك ، وأنك أصبحت ترى على رغم بُعد القبور قبركَ من غيوبتك . أولئك المزمِعو النأيَ تتكشف أمامهم الحجُب ، فما يلبثون أن يروا مصيرهم كما لو كانوا من كتابٍ مفتوح يقرءونه .

ما سوى جسمك النحيل الآن معنا . وأما روحك ، فسلامٌ عليها حيث شدّت رَحْلها وأقامت . لقد صعدتْ تباعاً إلى مجاهل الغيب ، ما خلا خيطاً رفيعاً

منها ما يزال متعلقاً بك ، ليصلك بالحياة إلى حينٍ حتى تأزف الدقيقة الحاسمة فينقطع .

قُضِىَ الأمر يا شقيق وأُحِطْتَ بعد طول الصبر علماً بمصيرك . فلا تفاؤلَ اليوم يخفف بلوالكَ ، ولا تَمَنٍّ على كربتك يعينك . ومضَى الموت يرسم فوق جفونك علاماته البغيضة ، فتراها وأنت مغْمِضٌ كما يرى النائم حلماً مزعجاً ما تود أن تنتهى حوادثه .

ولقد أخذ القضاء يدق فى أذنيك ناقوسه ، منذراً إياك بدنوّ الأجل ، فتَسمعه وأنت عن الوعْى غائب ، كما يسمع المسوقون إلى حتفهم صوت النذير .

بأبِى أنت بأىّ جَنانٍ تلقيتَ من الغيب خبر نعيك ؟ وبأى مضنًى من شعورٍ رحت تقضى ساعاتك الأخيرة ، بعد أن أفلت من يدك حبل الرجاء الذى كان يخدعك عن مصيرك ، ويَصل بالحياة ما تقطّع من سببك ؟

واحسرتاه ! إذَن فلقد رأيت أنت منزلك الجديد ، يا ما أشأمه من سكنٍ هو ! ويا ما أبغضها من إقامةٍ تلك التى ستسدل الستار بينك وبين النور إلى الأبد ، وتفرّق بينك وبين أحبابك ! حيث ثوى ليس يجدى مع مَللك صبرٌ ، ولا من الفرَج يدنيك تعاقُب الأيام .

النـــذير

خَبَّرَ الطبيبُ يا شقيق أنْ سوف لا يَبرأ جرْحك . أتُرَى الزمانُ يجمعنا غداً ، أم سوف لا يطلع صبحك ؟

لهفى عليك فى الأحياء عدُّوك وفى الضمير دفنْتك ! ولكم أسير وقبرك بين الضلوع حَملْتُه !

تسائلنى متى يكون الشفاءُ ، آهِ لو تعْلم ما علمتُه ! أىُّ بِشْرٍ به ألقاك وفى الحشا همٌّ كتمتُه !

يا حبيبي أميّت أنت الغداةَ فما نعود نراك إلا في الرؤى؟ وأقول جاءني الليلةَ في المنامِ، وفي الخيال رأيته؟

الاحتضار

حان وقت الفراق فهيا، وتأهّبْ لوشك رحيلك، يا شقيقي، واسألْ الله أن يعيننا ويعينك.

زاغ منك البصر واكبدي حتى لكأنه في الغيب ينسكب. ومضى صدرك يعلو ويهبط كالموج في ليلةٍ عاصفة.

وها هما تان شفتاك في مرارةٍ تختلجان كأن ما بهما وشْكُ بكاء. يا روحه الحيرى في فمه، ألا عودي بربك إلى مقرك من قلبه، ولا تفجعينا في ماضينا الحبيب معه.

أيها المُصارِعُ الموتَ يا معانياً في شدّتك هولَ

اغترابك ، أو مِن ظمأٍ بك ما ابيضَّتْ له شفتاك وجفَّتا ؟ أىُّ جهدٍ منك أو شوقٍ يا تُرى ، ذلك الذى أضرم كل تلك النار فيك ، فظمئتَ وعهدى بالليالى باردة ؟

وارحمتاه ! ها أنت ذا تمرُّ بلسانك على شفتيك كأنما لِتُندِّيهما . وإنك لَتفتح فى الفترات فمك ، كمنْ تبحث عن قطرة ماء ضلَّت هنا أو هنالك .

يا أهلِيهِ ممن حوله التفُّوا وبالدموع الغوالى بكوه معى ، ألا أسعفونى بجرعة ماء أقطِّر له منها فى فمه .

لهفى على القطراتِ تجف على شفتيه كأن الذى بهما حريق ! ومع هذا ما يزال المسكين يمد فى ضنَى لسانه ليلتقط بقايا البلل .

ما أحسبه يعى ما يفعل ، فلقد غاب عن الوجود وتلاشى إدراكه . ولكنها الرغبةُ الدفينة ما راحت تسوقه إلى ذلك ، فيفعل ما يفعل كمنْ يتلقَّى الوحى عن

إلهامٍ قديم ، أيام كان يظمأ فيحسُّ ظمأه ، ثم يَرِدُ الماء فيرويه .

ما أسرعَ أن تذوى الزهرات الأليقة ! كل شيء فيك خبا ، وما أنت الآن سوى طيف نورٍ قديم ما يزال يحلم بسناه وهو يجدُّ كي يَلحق به .

أهكذا تكون خاتمتنا ؟ نحلم في ساعاتنا الأخيرة بقطرة الماء ، فما نظفر منها إلا بمثل ما يظفر به النائم من حلمه ، ونَبعث في أثرها باللسان فيرتدّ إلينا وقد قنع بالبلل ؟

واحسرتاه ! ها قد كَفَّ لسانك أخيراً عن الحركة . كأنك قد ارتويتَ ولَيْتَ أنك ! لقد اختفَى حلمك أيضاً فيما اختفَى . ما أقلّ القليل الذي بقِيَ عندنا منك ! وما أسرَع ما أنت آخذٌ بالزوال ، كالظل أدركتْه الظهيرة فعلى عجَلٍ راح يتقلص .

إنْ هي إلا لحظةٌ حتى يدرِك الطيفُ منك

المصيرَ الذى كُتِب على نوره ، فلا يعود ثمة فيك ما يحلم أو يَرى ، ويبتلعكما الظلام معاً إلى الأبد . آه ! شدَّ ما يُخدَع باليقَظة منا أناسٌ خُلقوا للسبات !

خشوعاً أيها الحاضرون وذروا البكاء لبرهة . إنها الدقيقةُ الحاسمة دنَت أو توشك . أنظروا صدره تجدوه هبط من بعد ثورة . وطويلةً أصبحَت الفتراتُ بين أنفاسه ، حتى لَلارتاب فى أنه أسْلم الروح .

مسكينٌ ، لقد عاد يفْتح عينيه ! متألقتَيْ الوميض يكاد وهَجهما يخطف البصر ! ما أحسب إلا أن روحه على صفحتيهما تجمَّعتْ ، وبنورها السنىِّ أضاءتهما قبل أن تنطفىء ، كالذبالة تتوهج قبل أن تلفظ من نورها آخر قَبَس .

هيا واملئوا منه عيونكم فتلك آخر نظرة . ها هو ذا أيضا ينظر إلينا كأنما ليُشبِع منا شوق الأبد . انظرْ يا حبيبى ما سمح لك بصرك الكليل ، وما أمهلتْك

اللحظاتُ القليلة الباقية .

انظرْ ، وتزوّد من محيك لرحلة ما لها من آخر ، وإن كان محالاً أن ترتوى أو تشبع ، أنت يا مَن ما إخال عينيك إلا مغْمضتين بعد الجهد على ظمئك .

كل شيء الآن قد انتهى . ها فمك قد انفرج فى مرارةٍ ثم انطبق . ولقد أرخيتَ على ضناك جفونك . إنا لله وإنا إليه راجعون .

ما أرهبها كلمةً تلك التى فتحتَ فمك أخيراً لتقولها ! ولا ريب فلقد كانت كلمة الموت . وإنها لَمُرة المذاق فى أفواه الموتى ، تفُوق مرارتها كل عذابٍ تذوّقوه فى الحياة أو قبيْل الموت ، حتى لتتقلص لها شفاههم وهم يلفظونها كما لو كانوا أطفالا يكون .

وإنها لكلمةٌ صامتة ، ولكنها أبلغ من كل ما تفوهوا به . غير منظورةٍ كالعهد فى الكليم ، ولكنها

تخال لفرط بلاغتها تُرى . إنها المرارةُ كما لو كانت معناها تجسّدت .

إذَن فلقد متَّ يا شقيق ! إذن فلستَ أنت الآن معنا ! إذن فهناك أنت عند ربك ! يا رحمك الله ! أيها الجاثون على الجثمان المسجّى ، ألا صلوا جميعا ، ثم ابكوا ما شاء لكم البكاء على راحلكم العزيز .

المـــوت

أقُضِىَ الأمر يا شقيق ومت ؟ أحان الوقت كى تنام وتنسى ألمك ؟ إذَن فنم واستغرِق فى الرقاد إلى الأبد ، فما من شىء اليوم قادرٌ على أن يزعجك .

إنك لن تصحو لتتعذب ، ولكنك لن تصحو أيضاً لتقتطف طيبات الحياة . لقد سُقِيتَ الشرابَ الذى غيَّبك . فلا ظلامَ اليوم ولا نور . لا نعيم ولا ضنى .

كان الثمنُ الموت كى تبرأ من جِراحك . كان

عليك أن تُجرح من جديدٍ ليبلّ جرحك . ولقد تلقيتَ الجرحَ فشَفاك .

وإنه لَجَرحٌ هائلٌ ذلك الذى تلقيت . جرحٌ لا كالجروح . يشفِى ولا يشفَى . غير ذى ألم ، ولكنه يَسلب الشعورَ بالراحة . ماكرٌ خبيث . ذو وجهين ، يأخذ بالشمال ما يعطِى باليمين . يُوهِم بأنه يَمنح الشفاء ، وما يمنح سوى الفراغ . الفراغ من كل شىء ، من الداء ومن الدواء .

لَبِئْس العلاجُ الموتُ إذا لم يكن سواه شفاءٌ للموجَعين ! إنها لَصفقةُ غَبنٍ أن نشترى راحتنا بالحياة . أنْ ننشد البرء فى حيث نَفقد معناه .

ومع هذا فأنهم يحسدونك ! ويقولون استراحَ ، ولو فطنوا لعلموا أنك ما استرحت . وأن كل ما هنالك أنك فقدت الألم بعد أن فقدتَ الراحة من قبل . أىْ أنك أضفت إلى ما فقدتَ جديدا .

ولكنّ أغلب الناس على الحسد جُبلوا. يحسدون الإنسان حتى على الموت! على أنه أصبح كومةً من تراب! ربِّ ماذا يمكن أن نكون دون هذا ليقنَعوا؟

المسجّى

أخي! أترقد هكذا لا حراك؟ لا حراك، وإلى الأبد لا حراك؟ وافجيعتاه! يا صوابُ طِرْ، ويا حسرةُ هبِّي وأوقدي نارك، وابعثيها حرّاءَ صارخةً في الضلوع، فلقد قُضِيَ الأمر ومات الحبيب.

أخي! يا حبيب مهجتي! أذهبتَ إذَن؟ وإلى غير عودةٍ ذهبْت؟ أإنْ بحثتُ عنك الفداةَ لن أجدك؟ وأيّان فتشتُ لن أجدك؟ وإلى أن أموت لن أجدك؟ واحرّ قلباه! ألا يا نار زيدي ضرامك، ويا دموع سِيلي وأغرقي محاجرك، واصرخي معاً: لقد مات الحبيب.

أخى ! ما هذا بربك ؟ أتنكرنى ؟ من أنا ؟ تكلَّم أيرضيك ؟ أن تجهلنى هكذا ؟ أنا أخوك . أنت تعرفنى بلا ريب . أوْ كنتَ يوماً ما تعرفنى . مَن ذا الذى إذَن نَسَّاك فنسيت ؟ أين صحبة الماضى الطويل ؟ أين عِشرة الأيام الأُوَل ؟

أفلا تذْكر ؟ أيام كنا صبيين نَسْتَبِقُ على الحصى ، ونُصيب بالحجر قطوفَ الفاكهة ؟ أفلا تذكر ؟ ذلك العهد الذى احتوانا فيه حضنُ أبوينا رحم الله من مات منهما ؟ أبوك رحمه اللهُ أنسيتَه ؟ حسناً ، أنت وشيكاً ذاكرُه . إنه ملاقيك هناك على مَتْن السحُب . فاقطعاها معاً إلى الرفيق مرْحلة ، وادخُلا فى زمرة الأبرار الأخَر .

لمَ لا تتكلم ؟ لقد قلتُ كثيراً وما نبستَ ببنت شفة . بُحَّ صوتى فما ألقيتَ بالاً إلىّْ . تكلَّم ، فلستُ أطيق أن أراك خارساً هكذا . تكلَّم ! نعم تكلم ،

كما سبق أن كلمتني .

ما هذا الصمت البليغ ؟ صمتك أبلغ مما أعى . تكلم أنت ولا تذرني لبلاغة صمتك . قلْ لي كيف يرقد الهامدونَ ، وإلى الأبد ؟ قلْ لي كيف يرتدُّون صُمًّا خرْساً لا يعون ؟ ثم قل لي بأى عقلٍ ألوذ كيْ أفهم ذلك ، وإلى أى مدًى سينتهى تفكيرى . صمتك ما يفتأ يقوله لى ويكرره ، ولكنّ منطقه بليغٌ على ذكائى . تلك الحقيقة الكبرى أجلُّ مما أستوعب . فتكلم أنت بربك ، ورُدَّني إلى ما لي قِبَلٌ بفهمه .

ماذا دهاك ؟ من ذا الذى ألجم فمك ؟ ومن ذا الذى أطبَق عينيك ؟ أىُّ بلاءٍ ذلك الذى غلبك على أمرك ؟ قمْ ! قمْ بحقِّ ودِّنا القديم وكلِّمني . قم ، إن كنت تستطيع ! آهٍ لك حين تعجز ! واهاً للقادرين ، حين يتنكَّب العاجزون .

لقد جربتُ بطش الجبابرة ، وبلوت عنف الفؤاد إذا

قسا ، فما وجدتُ أقوى من المرء إذا عجز . إن قلبي لَيتفطر رثاءً لقلة حيلتك . حين أراك مسجًّى هكذا ، تستبدُّ بي في الضمير شفقةٌ لا تَرحم .

أخي ! قم ناشدتُك الله ! أراك لا تجيبُ ، فهل استطبتَ الكرى ؟ أتخشى إنْ أنت قمتَ أن تعود إلى شقائك ؟ أوَجدتَ الموت خيراً لك مما كنت فيه ؟ إذَن فلماذا لا تقوم ؟ لمَ تُصِمّ أذنيك دوني ؟

ما أجَلَّ ما يبدو الآن وجهك ! ليَكاد جبينك يضيء من تحت غبرة الموت ! ولَكأني بابتسامةٍ عذبة ما تنفك ترتسم على فمك ! ليت شعري أرحتَ تحلم بأمانيِّك ؟ أم أن مكانك في الخلْد راقك ؟

ألا يا شفتيّ هيا قبِّلاه ! ويا عينيّ هيا وابكياه ! قبِّلاه ، قبِّلاه ! وبالدموع ندِّياه ! قبل أن يأتي الصباح فيأخذوه . وفي التراب يواروه .

لهفي عليه لا يستطيع دفْع قبلاتي ! ألَو استطاع

كان يتركني هكذا أنتهك حرمة موته ؟ أوَما كان يشفق على جبينه البارد من حرارة فمي ؟

فلأكفَّ إذَن ولأحترمْ عجزه المقدس . ولأغطِّ وجهه الهضيم فلكم يخيل لي أنه يستحي من عيوننا. ألستِ أباح سِرَّه الموتُ لا أصُون عليه سِرَّه ؟ كلا ، إني أعوذ بودنا الحريق أن أفعل . فلأسدِلْ إذَن الحجاب على جرحه ، ولأركعْ خاشعاً بجواره ، أحرسه وأؤنس وحْشته حتى مطلع الفجر .

الهـــامد

أذَّنَ الفجرُ فقمْ أيْ أخي ، ورُحْ وجيءْ بيننا كما كنت تفعل . أفِقْ ، لقد أفاق النيامُ ونفَضوا الكرى ، فهيا وعنك انفضْ سباتك . قمْ كحِّلْ عينيك بنور الصباحِ ، وعُدْ للمنَى والحياة كسالف عهدك .

قمْ ، فما حان بَعدُ وقت الرقادِ ، والصبا منك لمْ يزل فى عنفوانه . قم افرحْ واترعْ كأس الطِّلَى من شبابك ، وغنِّ واحلمْ ما شئتَ فهذا اليوم يومك .

قم ، إنّ زهورك على الغصن ترقب أوبتك ، وبلابلك ما برحتْ تغرد فى انتظارك . ليت شعرى أزهدتَ فيها وبالنوم لُذْت ، أم قد أردتَ النهوض فجهدك خانك ؟

أيها الذاهبُ عنا بظلمتكَ ، يا حاملاً ضناك بين ضلوعك ، لهفى عليك تنقلب أمانيُّك حسرةً فى فؤادكَ ، وفرحتك غصةً فى فمك .

أنت يا راحلاً فى البِدارِ ، ويا ذاوياً والعمرُ بَعدُ فى نضرته ، قم فما يزال عليك أن تملأ قلبك من صباكَ ، وعينيك من جمالك تُتْرِع .

آه ! لمَ يا ربِّى خلقتَ الشباب ليموتوا ظِماء ؟ لمَ تأخذهم وفى قلوبهم حسرة ؟ لمَ لا تتركهم يرتوون

ليتأهبوا لظمأٍ أبدى ؟

أخى ! أهكذا ترقد وبين جنبيك نارُ شوقٍ معذَّب ؟ نارٌ لكل أمنيَّةٍ ، ولهبٌ لكل ظمأ ؟ أشواقٌ أبديةٌ تبلَى أنت وتبقَى منطويةً على لهبها ، كنار المجوس أبداً تحترق ؟

آه ، ماذا أقول يا أخى ؟ إن نارك لأحرُّ من أن ألمسها عن كثب . وأنا إذا كنت أبكيك ، فأنما ألمس الوهج فقط وأبكى به . وأما النار ، وأما اللهب ، فلن أصل إليه حتى أحترق . ولذا فلسوف أظل أبكِى وأبكى ، ثم أموت دون أن أفيك حقك .

حـــزن

آذَن الشقيق يا قلبُ برحيلٍ ، فقُمْ سَرِّحْ فى الفضاء بلابلكَ ، وفى وجه النور أغلِقْ أبوابك . ثم عُدْ وارقب الهمس يتلو أناشيد الخراب فيكَ ، والظلامَ

يطلق الأشباح تمرح فى حجراتك . وتجلد واكظم الكمد إن استطعت كلما رأيت البلى جاثماً فى ربوعك ، فلبئس الديار هى من بعد الأهلين تبقى .

من نشأنا طفلين معاً ، وصبيين لعبنا معا . من ضحكنا قديماً وبكينا معا . من لبسنا الجديد معاً وشربنا الحلو والمر معا . ومعاً سقف دار أبوينا دهراً ظللنا ، وعلى صدريهما الحنونين مدللين تلاقينا ، اليوم يا قلب قد شد الرحال إلى ديار ما لأوبته منها من سبيل ، وأزمع السفر إلى رحلة ما لها من آخر .

فيا عين ابكى لا كما بكيت قديماً ، ويا قلب احزن ولكن لا كما حزنت . لقد غدت أتراحك اليوم أبدية فى شغافك ، فلا أمل وشيك ينسيك ما بك ، ولا نور مواتٍ يبدد ظلمتك .

يا رحمك الله ما أسبغ الرحمة على العطر المولى

من زمانك ! إن لياليك المقمرة ، قد ذهبتْ وا أسفا وأعقبتْها ليالٍ مدلهمّة . والربيع الجميل مضى بزهره وعبَقه وخلّفه الشتاء بأوراقه الصفراء ورياحه المزمجرة . فاقبعْ الآن ذليلا قانطاً فى خَرِبتك ، وقرّحْ بالبكاء عينيك فى انتظار الساعة التى تنهدم عليك فيها قصبح وإياها أنقاضاً بالية .

على القـــبر

أيتها البنفسجة ! عندما أضعك الساعةَ على قبر شقيق ، وبينما تحنو ورقاتُكِ الحزينة على جثمانه الضامر ، سأكون عن كثبٍ منكما أبكى .

أستحلفكِ اللهَ إذا ما عانقتْ أنفاسُك روحَه ، وانطلقتما ترفرفان فوق الضريح كفراشاتٍ هائمة ، إلاّ ذكَرتمانى كما أذْكركما .

ليتنى أفوح كعطْرِكِ وألقاه على الأثير معك ! إلى

أن يذيبني الوجد فأشفَّ مثله ، سأراه ما زيَّنَ الوهمُ لِي ، في كل زُورٍ عليكِ أتوهَّم أنَّهْ .

وكما يَعطف الحبيبُ على طيف الحبيب ، سأعطف ودموعي جارية ، على الفراشاتِ إمّا حُمْنَ حولك ، علَّه بينهن يكون .

أيتها البنفسجةُ وإذا ما غَشِيَ الليلُ فآذنتُ من دونه برحيل ، فابقَيْ حيث أنتِ عند رفاته . عطِّريه إلى حينٍ وآنسي وحْدته ، ثم اذبلي واضطجعي هامدةً إلى جواره .

أما أنا ، فسأكون في طريقي إلى الحياة الصاخبة ، أندب تفاهة حظي على أنْ لم يكن لِي منه مثْل نصيبك . وهناك وحيث أقبع وحيداً في حجرتي ، سأسْلم نفسي لبكاءٍ طويل .

يـــأس

كل ما أبذُل للتقرب منك عبَث . إن زفراتى لَتموت على فمى ، ودموعى لَتجفُّ فى الثرَى قبل أن تصل إلى جدثك .

كل شىءٍ أصبَح عبثا . لا شىء يمكن أن يجمع بيننا . لقد تقطعتْ بنا الأسبابُ مذ تردَّيتَ فى تلك الحفرة المظلمة .

ما أعمق نومكَ وما أطول كراك ! هيهات هيهات أن تفيق لتحسَّ ما بِى ! وإلى تفعل ولن تستطيع ، ستظل دعواتى صرَخاتٍ ضائعة ، لا سميع لها ولا مجيب .

ومع هذا فسأصلى من أجلك ، وأذرف الدموع قرباناً لذكراك . ولكنْ ، وا أسفاه ، إنها لن تكون شيئا يُذكر إلى جانب ما فقدت .

إننى لَأزْجِى الدموعَ تَجرى كالسيل ، وأُطلق

الحسرات مشبوبةً كاللهب ، ولكنك أنت ، فقدتَ والهفى العينَ التى تدمع ، والقلبَ الذى يتوجع .

مسكينٌ ، لقد فقدتَ كل شىء وفرغتَ من كل شىء . كلّ شىء حتى نفسِك . نفسُك ، التى كانت مِلْءَ نفسِك ، لا تذْكر اليوم أنك عرفتها . كل ما كنتَه وما صرتَ إليه ، أصبحتَ عاجزا عن أن تعيه .

ولقد انمحت معالمك من الوجود فما نعود نراك أو نقع لك على أثر . حتى فى ذاكرتى ، لم تعدْ صورتك واضحة مفهومة . لقد بدأتْ واحسرتاه تُشْكل علىّ من وراء طيات البعد السحيق .

حقيقةً إن وجودك يملأ خاطرى ، ولكنه وجودٌ من بعض العدم ، لأنه ليس سوى انعكاسٍ للزوال .

أجَل ، لَشد ما فقدتَ يا شقيق ! بل ماذا يمكن أن تَفقد بعد ذلك ؟ بل أين أنت حتى يمكن أن تَفقد ؟

لَبئس القربانُ الرخيصُ الدموعُ إلى جانب ما أنت ضيعْت ! ولكنْ ، مَن لِى بسوى الدمع حيلةً إذا ما حُمَّ القضاء ؟

سأبكى وأبكى إلى أن تتقرح عيناى . وإلى أن أنْفض يدى من مثل ما نفضتَ يديك منه ، سأظل ما بقىَ من حياتى أتعذب .

فيا نفسُ عجِّلى والحقى بحبيبك ، وواصِلا معاً فى الغيب أيام دنيا نديَّة . حين كنا لا تعرف الأحزانُ إلينا سبيلاً ، لا ولا تدرى أعينُنا ما الدموع .

حبذا أن يموتوا معاً قومٌ عاشوا معا . إن ذاتى ليست كل ما عساى أكونه . أنا مَن أحببتُ قبل أن أكون أنا .

الـــروح

عندما مَرَّ بمضجعي بلبلٌ شريد ، مردِّداً في السَّحَر أهازيج الأبد ، أنصتُّ وجوارحي واجفة ، لنداءٍ خُيِّلْتُ أني أعرفه ، وكأن روحاً روحي تعشقه ، خفَّ من خُلده متقمصاً جسمَ غِرِّيدٍ يُنزله ، لأراضٍ كان فيها موطنه ، حنَّ من شوقٍ إليها فجاء يُقرِؤها السلام .

إن كنتَ روح شقيقي الذي مات ، أيها البلبل هلاَّ قلتَ لي ؟ قفْ بربك بي لحظة ، واطفئْ الشوق ولو لمحة ، أيها البلبل إن كنت أخي .

قف وأفصحْ عن كنهك ، قبل أن تمعن في بُعدك . قف وقلْ لي أين دارك ، منذ قد شَطَّ مزارك ، حتى إذا أزمعتَ أوْبك ، ولَّيتُ هذا الوجه صوْبك ، كلما رفعتُ بالدمع عيناً مخضلَّة ، أو ذكرْتك سرًّا في صلاة .

غرِّدْ ! غرِّدْ ! إنك لا ريب من الخلْد آتٍ ، وفى مرورك عابر . ها هو ذا النأى يخالط لهجتك كأن شيئاً بها يمتُّ إلى عالَمٍ سحيق . ولَسرعان ما تغوص فى الفضاء أسجاعُك ، كأن الخلود الذى أنت منه أبىَ إلا أن يردَّ عليه أغانيك ، فما أبقَى منها إلا على ما يشْبه الصدى حدَّث عن صوتٍ بعيد .

كل ما فى صدحك ينْبىء عن مقْدَمٍ مختلَس . وكأنى به يَسْترقُ فى غياهب الصمت نفسَه ، كما يسترقُ الوافد الغريب خطاه ، تَدبُّ وما أسرع أن يحتويها السكون .

إيه يا شقيق ! لمَ آثرتَ أن تأتينى على جناحىْ بلبل ؟ لمَ لا تعود تتقمص شخصك ، وتجيئنى على النحو الذى كنت ؟ لمَ تَحجب عنى قسماتك ، وقديماً عودتَنى أن أملأ منها عينىّ ؟

لمَ آثرتَ أن تريبنى فيك ، وأنا الذى حقًّا أعرفك ؟ لمَ اخترتَ الخفاء وأنت بالإفصاح أحرى ؟ أمغترب

أنت وفى وطنك ؟ مجهولاً صرتَ ومن ذويك ؟ أجب ! بربك أجب ! أيها البلبل إن كنتَ أخى .

لئن كان ما ظننتُ وكنتَه ، فاللهمّ اجعلنى بلبلاً مثله ، وهبْنى قوةَ جناحيه وأطلق لسانى بأسجاعه ، لأتحدث اللهم وإياه وأطير معه .

إن كنتَ حقا روح أخى !
إن كنتَ حقاً روح حبيبى !

أبـــى

أبى ! أمِنْ بعد ما مضت على موتك السنونَ ، وخلتْ الزمانَ مُنسينى عهودك ، لم يزل طيفك شاخصاً بالفؤادِ ، كأنك كنت معى أمس أو أول ؟ وكأنى بك الآن جالساً بيننا ، ونحن حولك ملتفونَ ، نستقِى الراح من صافى ودادك ، ونتلمّس البرَكة من تمالك ؟

عجباً للذين عقّوا أهلهم لوفائي ، أفنسوا أنما أنت يا أبي رعيتني قديماً ، وأنجبتني باراً فرعيتُك ؟ أفنسوا أنما ألّفتْ بيننا الدماءُ فجعلتْ منا كائناً واحداً وإن يكن قبلُ كان في جسدين ؟ لا وحبّك ما سلاك الفؤادُ ، أنت يا من عاصرتَ منذ المهد عمري فسجّلتَ على صفحته طابعك .

تالله لتبيتُ تشتاق العينُ إلى أن تراكَ ، وحقِّ نورٍ منك عوّدها رؤيتك . أين طلعةٌ منك مهيبةٌ ، وقسماتٌ كانت كالزهر إمّا هرِمَ نمّ عن حسنه الغابر ؟ أين شيبٌ منك وقورٌ ، وجبينٌ مشتْ في غضونه السنونَ فأكسبتْه من روعة القِدم عَراقة ؟ أين بصرٌ منك نافذٌ كم به من خفايا القلوب قرأتَ ، وثاقبٌ من الرأي ما عُرفتْ عنه قطُّ كبْوة ؟

أيُّ نورٍ غاب يا أبتي منك في ظلامٍ غيّبك ؟ يا ملتمعَ العينين كنتَ من فرط الذكاءِ ، يا ناصع

الجبهة من صفاءٍ وتُقى .

يا ما أشقّه منظراً كان ، حين نشب الداءُ البغيض فيك أظفاره ، وأشاع وشْكُ الموت فيك اصفراره ! يا إلهي أوَقَدْ كان ينقصك فى شيخوختك الوهَنُ حتى يدهمك المرض فى أواخر أيامك ، ويزيد جسدك ضعفاً على ضعف ، أنت يا من كنت بالرحمة والإشفاق أحرى ؟

ويا لها من لحظةٍ رهيبة حين دنتْ ساعةُ الفراق فزاغ بصرك ، واختلجتْ كبوادر البكاء شفتك ! يوم صرختُ أبتاهُ فلَمْ تَحِرْ جوابا ، وهممتَ بأن تنطق فقوك خانك . ثم قلتَ بعد الجهد وداعا . فبكيتُ وقلتُ أحسنَ الله جوارك .

وحـــدة

ما أشْـقاى من زهرة !

الزهور التى عاصرتْ مولِـدى ، ذوتْ وتركتْنى وحيدة . وكلما تأملتُ عروشَـها الخاوية ، رافعةً لذلك عينين نضّاحتين ، تتابعتْ علىّ الذكريات الحبيبة ، كأنها السفائنُ تسْـبح فى خِـضَمٍّ دموعى .

ما أعزّها لِداتٍ تلك التى جاورَت المهدَ وشبّت معه ! إليه أيها الراقدون تحت أطباق الثرَى ، مِن جدودى الأكرمين وشقيق وأبى ، يا من سقيتمونى من صفْو ودّكم العريق ، وعلى مرآكم ترعرعَ عُودى ونما ، كيف بالله أنساكم ومنكم دمى ؟

كلما تحسستُ موضع ذاتى ، لمستُ على الشك أرواحَـكم الحبيبة ، تتزاحم فى كيانى كالرؤى الكاذبة

بين جفنيْ الحالم ، تعيش بين يديه ، وكأنها حرامٌ عليه .

وإنى إذا ما قلّب الأمس بين يدىّ صفحاتِه ، لأعجَبُ شوقاً بالذى ما إلى لقائه من سبيل ، وإذا بى العامرُ القلب بالذى صرتُ إلى الخلُوّ منه .

ما أنا إلا شوقٌ مُحْرِقٌ إلى مطمعٍ جِدّ مفقود ، كلما ردّه اليأسُ استدار على نفسه فتلظّى فاحترَق ، فأذا هو رغبةٌ حزينة راسبة فى ضمير الوجود ، لا انبثاق لها ولا أمل .

القبلة الأخيرة

يا زهراتى الجميلة ! يا بهجة عينى أنتنّ ومؤنساتِ وحدتى ! يا مرفّهاتِ أحزانى عنى وعزائى فى ليالىّ الشقية ! تعالىْ أقبلكنّ اليوم آخر قبلة .

إن ساعاتى أصبحتْ محدودة ، وعما قليلٍ يحتوينى

الظلام الذى يحجبكنّ عنى إلى الأبد . ها لونى قد حال مع الأيام ، وشذاى آخذ فى الموت على إهابى . وعندما ألفظ من عطرى آخر نسمة ، سأكون فى الذاوياتِ رفاتاً هامداً .

إن أيام العمر الطويلة ، مضتْ كطرفة عين . وكأن ساعة ميلادى ، كانت منّى أمس أو أدنى . جميع ابتسامات الماضى ودموعه ، محتشدة الآن أمامى كأنها حلم ليلةٍ واحدة . وكأنما على عجَلٍ تقضّى ، عمرُه عهدتُه سار على مَهَل . عجبتُ للّحظة كيف احتشدتْ فيها مرئياتُ أعوام .

لا أسف على ابتساماتٍ قدّمْت ، إلا أن تكون تقضّت . وأما الدموع ، ففداءٌ لِلّيالى التى عليها ذَرفْت . إن مِن حق ذكرياتنا العزيزة أن نبكيها كلما ارتحلت . عندئذ تغلو بما نُرخص فى سبيلها من دموعٍ هى الأخرى علينا عزيزة . ولئِنْ نَغْلُ

بها ، فبعض الاعتراف بما فى عنقنا لها من جميل .

ورُب غلامٍ خلفْنا عليها ، غلوْنا به أيضاً ، نحن مَن هى فينا تعيش . أشهد أنى ما عرفتُ لنفسى قيمة ، إلا منذ اليوم الذى نوْتُ فيه بما أحمل . عندئذ وعندئذ فقط ، أيقنت أنى أساوى كل آلامى .

أيتها الزهراتُ إنى وشيكاً مُفارقك لأعود فألتقى بمن قديماً فارَقونى . وجميلٌ بالمرء أن يُؤْثر الأقدمين ممن أحَب ، وإن تعددتْ على مَرِّ الزمان أحبابه .

إن هناك وفى مكان أجهل وتجهلين ، لأباً مات وشقيقاً وحيبة ، هم أعرَقُ من وثّقتنى بهم صلة ، وأعَز من عطفتْنى عليهم محبة . هم جيران الصبا والمهد كانوا ، وأول روْىً عليها عيناى تفتحَت .

وإنّ منهم لَتلك البهجة التى شاعت قِدْماً فى أسارِيرى ، وإن منهم الآن لذلك الأسى الذى اكفهرت له فغلتْ فى نظرى بسببه . مَن أحَبُّ إلىّ مِن

نفسى حين أتكبد فى سبيلها ما يجعلنا على المحنة نجتمع ؟ إن الشقاء ليؤلف بين من التقوا عليه ، حتى ولو كان المرء ونفسُه .

إن هؤلاء الأخيار الأكرمين ، بما هيأوا لى من ابتساماتٍ وكبدونى من دموع ، لأعزّ علىّ من أن أرضى بسواهم بديلاً كائناً ما كان . مَن أحَقُّ بحبى ممن أسعدنى وسقانى من كأس وده ما رَبَتْ نفسى به ؟ مَن أحق بحبى ممن جشّمنى العذابَ فى سبيله فأودعتُ لديه بعض نفسى ؟ نحن مَن عاشرْنا ومعهم ضحكْنا وبكينا ، لا مَن مَرّ بنا مرور الكرام ثم اختفى . وإنما تضمر الحبّ نفسى ، لمن أبكانى وسرّنى فأخذ عندئذ من نفسى وأعطَى .

إيه أيتها الزهرات الصديقة ! إن فى تقليب الماضى لَما يُجرى العِبَر . وبعدُ فلعلك الآن قد رأيت عِظَم ما فقدْت . فلا تعجبى إذَن إذا كنتُ أحنّ

إلى تلك البقاع المجهولة ، فأن فيها والله لأعزّ من تربطني بهم وبه معرفة .

فهنالك أيضا غير مَن ذكرت ، أيامٌ وليال سعيدة ، ما تنفك تلوّح لي من وراء الزمان مناديةً . ثم ثمة دورٌ ورياضٌ ورُبىً ، رتعنا زماناً في ربوعها ، بعضها عفا وبعضها تبدّل أهله ، قد انطوت عهودها في الغيب أيضا مع ما انطوى .

وأخيرا ثمة أنا الطفل ، ثم ثمة أنا الصبي . هنالك تلك الصور الحبيبة ، التي انسلختْ قِدْماً من شخصي وابتلعها الغيب فيما ابتلع . هنالك أنا الطفل المشرق المتهلل الباسم أبداً للحياة ، يحنّ إليه وتهفو روحُه لأن تراه ، مَن هو الآن أنا الحزين مَن بالهموم تثقّل .

هناك هناك أشياءٌ وأشياء . بل إن كل شيء قد أضحى هنالك . إنما الحياة ما فرَغ منها معنا فربطتْنا

به أواصرُ القِدم ، لا ما يزال منها يطرق علينا الباب ليدخل .

مِن كل قلبي عَلِم اللهُ أعود إليك أيها الماضى ، حيث تجدُ نفسى فيك ما فارقَت . ذلك خيرٌ لها من حياةٍ أضحتْ فيها لفرط ما فَقدتْ يتيمة .

وسلامٌ عليك يا زهراتى فاليوم آن أن أقول الوداعَ لأزمع الرحلة التى ما يعود مسافروها . وإذا كان ثمة ما يزال فى الفراق ما يجْرح النفس ، فاذكرْنى سألتكنّ أيّان غبتُ ، علّ نفسى بالذكرى تطيب .

أستحلفكنّ بحرمة الجوار وبمَقْدمى العريق ، أيتها الزهراتُ إذا ما مِتُّ فى غدٍ وهمدتْ عظامى ، أن تذكرْنى وتُساقِطْنَ القطْرَ على ورقاتى الذابلة ، كلما رَذّكنّ رشاشٌ فى الأصائل ، أو طلع عليكن فجرٌ فبللكنّ بنداه .

توبـــة

الآن وقد لثمتُ كل زهرةٍ وشممْت كل عطْر .
الآن وقد همتُ بكل جمالٍ وشبَّبتُ بكل حسْن .
فـلأعُدْ أدراجي إلى التراب ، فأنني لن أترك الحياة
حينئذ وفي قلبي حسرة .

لقد أثمتُ كثيرا ، ولكنني أستحلفكم الله أن لا
تلومونى . ماذا كنت أفعل ، وقد استبدَّ بي في الأعماق
ظمأٌ قاتل ؟ ظمأٌ ما أذْكر أنه أمهلني كي أتروَّى .

لا تسألوني لمَ ظمئْت ، ولكنْ سلوا الحسانَ
لمَ أظمأنني ؟ سلوا العيون النعسانة ، سلوا الشفاه
القرمزية ، سلوا الشعور الفاحمة ، سلوا القدود السمهرية ،
سلوا السُّوق الملفوفة ، سلوا الأكفَّ العاجية ، أكان
في وسْعي أن أنظر إليها وأغضي ؟

ومع هذا أفلَم أنتَهِ وتَنْتَهِ آثامي معي ؟ ماذا

بَعد تسليم العبد مِن مكفِّرٍ لذنوبه ؟ لقد كان ما كانَ ، فارحموا شقْوتى وعفا الله عما سلف .

الوداع يا حِسان الوادى فأنى إلى المحراب ذاهب . إن الليالى المقمرة قد ولت بأحلامها وحلت محلها ليال حالكة . لقد خيمَت الأحزانُ على الفؤاد فكبَّلتْه . وكما تنطوى الزهرة على ظلامها ذات ليلةٍ معْتمة ، طويتُ فؤادى على ضناهُ فما عاد يمكن أن يتفتح لكنَّ كما كان .

وعلِم الله ما ملَّكنَّ الفؤادُ ، ولكنها البشاشة التى كنتنَّ تنْفذن إليه عن سبيلها خَبَت . إن دونه الآن لَظلماتٍ تنطفئن فيها قبل أن تبْلغْنَ حبَّته .

وهبْكنَّ وصلتنَّ إليها بعد الجهد ، فمَن للفؤاد بالنور الذى يستطيع أن يجتلِى حسْنكنَّ على هُداه ؟ أشهد أن عيونه ما تزال غَزِلةً توَّاقة ، ولكنْ ماذا يمكن أن تبصر العيون النُّجْل فى الظلام ؟

إنكنّ لزهراتٌ محبوبةٌ مشتهاة ، ولكنّ الضمير
وا أسفا قد تثقّلَ بما جعلكنّ حراماً عليه . إن لِلأحزانى
علىّ لحقًّا ، وقبيحٌ بى وإن استطعت ، أن أُهين وقارها
بمرحكن . كيف لا أعطف عليها وأرحم محنتها وأكون
لها ، أنا مَن لمْ يبقَ لها سواى بَعد أن طوّفَت طريدة
الوجود إلى أن استقرت فىّ ؟

يا زهراتى الحبيبة ! ابكى معى فلقد حالت أيامُ الصفاء
وحان للقلب أن يفْرغ لأشجانه . ولكن اطمئنى فما
يزال على الغصن بلابلُ صدّاحة . ارقبيها فلسوف توافيك
حتماً مع الفجر . وعندما تأخذ فى توقيع أغاريدها
العذبة ، فأنصتى إليها بأفئدةٍ واجفة ، وارتجفى على
أعوادك كلما بعثتْ على الأيك آهةً مشبوبة .

وإذا ما انثنت أيتها الزهور تقبّلك ، فتأوّدى دلالاً
على عروشك ، ثم أسْلميها فى خَفَرِ فمك . وتعاهَدا
عندئذ فى ذات أمسيةٍ نديّة ، كتلك التى تعاهدْنا نحن

فيها من قبل .

يا زهورى أنا ذاهبٌ فاذكرينى إذا ما حان ميعاد تغريدى ولم أعد . واذكرينى أيضاً كلما خفق منك الفؤاد لنغمٍ جديد . إننى سأكون يومئذ هامداً كهذا التراب ، فابعثينى فى قلبك ولو لفتراتٍ فى ساعات تذكارك .

وسلامٌ على الأمسيات القمرية . سلامٌ على الأصباح الندية . سلامٌ على الأضاحى ، على الأصائل المسجدية . سلامٌ على الورد فوق عروشه . سلامٌ على الطير فوق غصونه . سلامٌ على النحل الطنّانة . سلامٌ على الفراشات اللمّاحة . سلامٌ على الغدرانِ ، على الرُّبَى على الأعشاب السندسية . سلامٌ على الأوطان وعلى أيامى القصيَّة . سلامٌ عليها ما طلعتْ شمسٌ أو تربَّع فى الأفق قمر .

وأما أنتِ أيتها الأحزان ، فكم أحمد لك أن

أتحت لي فرصة التوبة . فجميلٌ بالمرء أن يتوب في أواخر أيامه . جميلٌ به أن يقنت ويتقرب زلفى لربه .

اللهمّ إني إليك تُبْتُ ولك أنبت ، فاقبل اللهم توبتي وأعِنّي على تكفيري واغفر لي . اللهم وتوفّني مع الأبرارِ ، واقبضني إليك غير مغضوبٍ عليّ ، وأدخلني اللهمّ في زمرة الصالحين .

الـــوداع

اليوم ينتهي تغريدي ، فاذكروني إذا رجّعتم غداً أغاريدي . حان وقت الوداع فسلامٌ ، ولا تترقبوني في مواعيدي . أنا ذاهبٌ وشيكاً مع الرياح خلا أنفاسٍ ستحيا في أناشيدي . باقياتٍ أبداً على الدهرِ ، مرددات في مِسْمَعِ الزمان تغريدي .

فاذكروني كلما أرقصتكم أنغامُها طرباً ، وبالدموع التي تبكيكم بها ابكوني . ومِن زهور الرياض ضعوا

فوق قبرى ، ومن ثمرها القربانَ على روحى قدّموا .
وقولوا تلك الزهور يا شاعرنا فى دنياكَ أحببْتَ ،
وذى الفواكه لليتامى من عندنا صدقة . اعترافاً من
لَدُنّا بجميلك الفذّ ، وتحيةً منا لذكراك العاطرة .

وقِفوا خُشّعاً حول الضريحِ ، وبدموعكم الوفية
رفاتى بلّلوا . أنا مَن رَجّعَتْ ألحانُه عن أفراحكم ، أنا
مَن ردّدَتْ آهاتُه أشجانَكم ، أنا كنت شاعركم
فابكونى .

[انتهى]

المؤلف

١

وحيد

الطبعة الثانية

مأساة غرامية

اشترت حق تمثيلها الفرقة القومية

وأقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها

٢

سهير

مأساة غرامية

٣

البطالة

بحث فى مشكلة العاطلين

تطلب جميعها من مكتبة النهضة المصرية بشارع

المدابغ امام جريدة الاهرام بمصر

obeikandl.com

تمت الطبعة الأولى من الزنبقة

في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٨

عدد ٥٠٠

مطبعة حجازي بالقاهرة

obeikandl.com